

الإدارة

في عصر الرسول ﷺ

الفصل الأول

الإدارة في الجزيرة العربية قبل الإسلام

- أولاً : مفهوم مصطلح الإدارة .
- ثانياً : الإدارة في القبيلة العربية .
- ثالثاً : الإدارة في مكة .
- رابعاً : الإدارة في يثرب .

obseikan.com

أولاً : مفهوم مصطلح الإدارة

إن كلمة الإدارة لم ترد في أي آية من آيات القرآن الكريم ، وقد جاء في القرآن كلمة « تديرونها » في الآية الكريمة : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاصِرَةً تُدِيرُونَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٢] كما جاءت كلمة « تدور » في الآية الكريمة : ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٩] وقد أورد المعجم المفهرس مجموعة من الآيات فيها مشتقات الفعل الثلاثي « دار » تحت مادة « دور » ^(١) ومن خلال مراجعة كتب فهارس الحديث تبين أن الكلمة لم ترد في أي حديث من أحاديث رسول الله ﷺ ^(٢) .

وذكرت معاجم اللغة كلمة « دَور » ومشتقاتها ، ولكنها لم تذكر كلمة « إدارة » إلا أن الرازي (ت ٦٦٦ هـ) في « الصحاح » ^(٣) ، وابن منظور (ت ٧١١ هـ) في « اللسان » ^(٤) ، والفيروز أبادي (ت ٨١٦ هـ) في القاموس المحيط ^(٥) ، والزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) في « تاج العروس » ^(٦) ، ذكروا كلمات قريبة منها ولم يذكروها بلفظها .

أما دُوزي فقد ذكر كلمة « أدار » وقال : « أدار السياسة : أي دبر أمورها وساس الرعية ، وكذلك « أدار » بمعنى جهد في العمل » ^(٧) ، وهذا يؤكد أنها حديثة الاستعمال بلفظها ؛ ولذلك فقد عرفها علماء الإدارة المحدثون بقولهم : « الإدارة تتكون

(١) محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ط ٢ ، بيروت ، دار الفكر (١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م) (ص ٢٦٤ ، ٢٦٥) .

(٢) محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، لندن ، مطبعة تريل (١٩٦٢) ، (ج ٢ ، ص ١٥٧ ، ١٥٨) .

(٣) الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، (ت ٦٦٦ هـ) ، مختار الصحاح ، بيروت ، دار الكتب العلمية د . (ص ٢١٥ ، ٢١٦) .

(٤) ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم ، (ت ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، بيروت ، دار صادر سنة (١٩٦٨ م) ، (ج ٤ ، ص ٢٩٥ - ٣٠٠) .

(٥) الفيروز أبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ، (ت ٨١٦ هـ) ، القاموس المحيط ، القاهرة ، المكتبة التجارية ، د . (ج ٢ ، ص ٣١ - ٣٢) .

(٦) الزبيدي ، محمد مرتضى (ت ١٢٠٥ هـ) ، تاج العروس ، بنغازي ، دار ليبيا ، د . (ج ٣ ، ص ٢١٣ - ٢١٨) .

(٧) ديهارت دُوزي ، تكملة المعاجم العربية ترجمة : محمد سليم النعيمي ، العراق ، وزارة الثقافة سنة (١٩٨١ م) (ج ٤ ، ص ٤٣٤) .

من جميع العمليات التي تستهدف تنفيذ السياسة العامة « (١) وهذا التعريف يشمل مختلف الميادين المدنية والاقتصادية والعسكرية والقضائية وغيرها .

* * *

(١) هذا التعريف يعتمد على علماء الإدارة في الغرب ، وعنهم نقله سليمان محمد الطماوي ، مبادئ علم الإدارة العامة ، ط ٣ ، بيروت ، دار الفكر العربي سنة (١٩٦٥ م) ، (ص ٢١) .

ثانياً : الإدارة في القبيلة العربية

عاش العرب في جزيرتهم وفق نمطين من المعاش فرضتهما طبيعة بلادهم ، هما : الحضر والبدواة ، فأما أهل الحضر فهم سكان الحواضر والقرى ، وكانوا يعيشون على التجارة والزراعة وتربية الماشية ، وأما أهل البدواة فهم سكان الصحراء « أهل البادية » ويعيشون على ألبان الإبل ولحومها ^(١) .

كانت القبيلة هي أساس النظام الاجتماعي عند أهل البادية ، وتُعدُّ أكبر الوحدات السياسية التي عرفها العرب ^(٢) ، ومارسوا من خلالها نشاطاتهم السياسية والإدارية والاقتصادية .

لم نلمح في الحياة القبلية منهجًا منظمًا للإدارة ، وإن كانت هناك مجموعة من الممارسات والأعراف التي أصبحت مع الوقت تقاليد راسخة لا يستطيع أفراد القبيلة الخروج عنها .

وأول ما يواجهنا في إدارة القبيلة مركز « الشيخ » الذي يقوم بالإشراف على القبيلة ويطلق عليه أسماء متعددة ، منها : « الرئيس » و « الأمير » و « الزعيم » ^(٣) ولكن أشهرها جميعًا لقب « الشيخ » الذي يفترض فيه أن يكون ذا خلال حميدة ، وسجايا

(١) ابن العبري غريغوريوس أبو الفرج بن أهارون (ت ١٢٥٦هـ) ، مختصر تاريخ الدول ، تحقيق : أنطوان صالحاني اليسوعي ، بيروت ، دار الرائد اللبناني سنة (١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م) (ص ١٥٨) . وانظر : ابن منظور ، اللسان (ج ٥ ، ص ١٦٣) . الزبيدي ، التاج (ج ٣ ، ص ١٤٦) الآلوسي محمود شكري ، بلوغ الأرب في أحوال العرب ، بغداد ، دار السلام سنة (١٣١٤هـ ، ١٨٩٦م) (ج ١ ، ص ١٢) .

(٢) قال القلقشندي (ت ٨٢١هـ) مقسمًا طبقات القبائل العربية : ١ - الشعب : وهو النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان . ٢ - القبيلة : فرع من الشعب مثل ربيعة من عدنان . ٣ - العمارة : فرع من القبيلة مثل قريش من مضر . ٤ - البطن : فرع من العمارة مثل عبد مناف من قريش . ٥ - الفخذ : فرع من البطن مثل بني هاشم من عبد مناف . ٦ - الفصيلة : فرع من الفخذ مثل بني العباس من هاشم . ٧ - العشيرة : وهم رهط الرجل . انظر : القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨١٢هـ) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، تحقيق إبراهيم الإياري ، القاهرة ، الشركة العربية للنشر سنة (١٩٥٩م) (ص ١٣) ، حسين مولوي ، الإدارة العربية ، ترجمة إبراهيم العدوي ، القاهرة ، المطبعة النموذجية سنة (١٩٥٨) (ص ١١) .

(٣) الآلوسي ، بلوغ الأرب (ج ١ ، ص ١٨) . وإبراهيم أحمد العدوي ، النظم الإسلامية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، سنة (١٣٩٢هـ) (ص ١١ ، ١٢) .

طيبة ، تمكنه من إدارة القبيلة في الحرب والسلم .

ولقد أفاضت كتب الأدب والشعر في ذكر هذه الصفات ، وحددتها بالسجاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان ^(١) ، وقد جمع هذه الصفات الشاعر ^(٢) في قوله :

فَقَلَّدُوا أَمْرَكُمْ - لَلَّهْ دَرْكُمْ - رَحَبَ الذُّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مَضْطَلَعًا
لا مُشْرِقًا إِنْ رَخَاءَ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ ولا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهُ بِهِ خَشَعًا
ما انْفَكَ يَحْلِبُ دَرِ الدَّهْرِ أَشْطَرُهُ يكون مَثْبَعًا طَوْرًا وَمُتَّبَعًا
حتى استمرت على شزر مريرته مستحکم السن لا قحماً ولا ضرعاً ^(٣)

ويظهر أن هذه الصفات تنبع من البيئة التي يعيشها هؤلاء الأعراب ، فهم بحاجة إلى من يمد لهم يد العون ، ويدافع عنهم ويحنو عليهم ، ولعل هذا كان واضحاً في أذهان الأعراب فقال سلم بن نوفل : « نحن لا نسود إلا من يوطننا رحله ، ويفرشنا عرضه ، أو يملكنا ماله » ^(٤) . أضف إلى ذلك عراقة النسب ، لنفور طباع العرب من أن يحكم القبيلة أحد من غيرها ، وسداد الرأي وكمال التجربة ^(٥) ، كل ذلك ضروري لمن يتصدى لإدارة القبيلة وقيادتها .

(١) الشيرازي ، عبد الرحمن بن نصر عبد الله (ت ٥٧٧٤هـ) النهج المسلوک في سياسة الملوك (مخطوط) شريط رقم (٥٢٧) صور من مكتبة بودليان أكسفورد تحت رقم (٣٨٣) مجموعة بودلي ، مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الأردنية ورقة رقم (٣٧) . والألوسي ، بلوغ الأرب (ج١ ، ص ١٨) . والعدوي ، نظم (ص ١١) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ، دار الفكر العربي سنة (١٩٦٥م) (ص ٤٩) .

(٢) الشاعر هو لقيط بن يعمر بن خارجة الإيادي ، وهو شاعر جاهلي قديم توفي في حدود سنة (٢٥٠) قبل الهجرة . انظر : ديوانه ، تحقيق خليل إبراهيم العطية ، العراق ، نشر وزارة الإعلام د . ت (ص ٤٦ - ٤٨) . النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب د . ت (ج١ ، ص ١٧) .

(٣) شزر مريرته : شدة العزيمة والشكيقية ، القحم : الكبير في السن . والضرع : الصغير في السن . انظر : النويري ، نهاية الأرب (ج١ ، ص ١٧) .

(٤) ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ) عيون الأخبار ، لبنان ، دار الكتاب العربي ، سنة (١٩٢٥م) نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية (ج١ ، ص ٣٢٦) . وانظر : المبرد أبا العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٢هـ) الكامل في اللغة والأدب والنحو والصرف ، تحقيق محمد أحمد الدالي ، ط ١ ، بيروت الرسالة سنة (١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م) (ص ١٦٦) .

(٥) ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن محمد (ت ٦٣٠هـ) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، طهران ، المكتبة الإسلامية د . ت (ج١ ، ص ١٣٦) . والنويري ، نهاية الأرب (ج١ ، ص ٧٥) . وحسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (ط ٧) ، المكتبة التجارية الكبرى سنة (١٩٦٤م) (ج١ ، ص ٥٢) .

ويفترض أن يقوم الشيخ بإدارة القبيلة من خلال فض المنازعات ، وإقامة الضيافات لضيوف القبيلة وأفرادها ، وإجارة المستجيرين الذين يلجؤون إلى القبيلة ^(١) ، ورعاية شؤونهم جميعاً - هذا في حالة السلم - أما في الحرب فهو يتقدم الصفوف ، ويساعد من لا عتاده له ، ويضع خطط الحرب ، وأن يكون رمزاً لأفراد قبيلته وبعثاً لهمهم ^(٢) ، وعند انتهاء الحرب يقوم بالإشراف على توزيع الغنائم ، ويتحمل باسم القبيلة الديات التي تترتب على أفراد القبيلة ، وعليه أن يقوم بفك من يقع من أبناء عشيرته أسيراً ^(٣) .

ويلاحظ أن شيخ القبيلة لم يكن مطلق الحرية في إدارة القبيلة ، فهو ابتداءً لا بد أن ينال رضا أفراد القبيلة ؛ إذ إن بعض القبائل لم تكن تحبذ مبدأ الوراثة في تولية شيخ القبيلة ^(٤) فقد يعزل الشيخ أحياناً ، وتنتخب القبيلة رئيساً آخر من أسرة أخرى ، أو أن الرئاسة تنتقل من الشيخ إلى ابن أخيه أو من فخذ إلى آخر . ويظهر أن أولئك الذين توالى الرئاسة في نسلهم ثلاثة أجيال نادرة ^(٥) ، ويمثل هذه النظرية قول عامر بن الطفيل (ت ١٠٠هـ) ^(٦) .

إني وإن كنتُ ابنَ سيدِ عامرِ وفارسها المندوب في كل موكبِ
فما سوّدتني عامر عن قرابة أبي الله أن أسمو بأم أو أب
ولكنني أحمي جماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكبِ ^(٧)

وقد علل ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) ذلك بقوله : (إن الرئاسة تأتي من قوة

(١) عبد العزيز الدوري ، النظم الإسلامية ، بغداد ، وزارة المعارف د . ت (ص ٨ ، ٩ ، ١٢) . والعدوي ، نظم (ص ١٢) الشريف ، مكة والمدينة (ص ٢٨) .

(٢) جواد علي ، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط ١ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، (١٩٧٠) (ج ٤ ، ص ٣٤٥) .

(٣) ابن قتيبة ، عيون الأخبار (ج ١ ، ص ٢٢٦) . جواد علي ، الفصل (ج ٤ ، ص ٣٤٨) .

(٤) الألويسي ، بلوغ الأرب (ج ١ ، ص ١٨) . والعدوي ، نظم (ص ١١ ، ١٢) .

(٥) ابن خلدون عبد الرحمن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ) المقدمة ، ط ٣ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي د . ت (ص ١٥٣) .

(٦) هو سيد بني عامر في الجاهلية ، أدرك الإسلام ، وفد إلى النبي ﷺ ولكنه لم يسلم ، توفي سنة (١٠هـ) . انظر : ابن الأثير ، أسد الغابة (ج ٣ ، ص ٨٤) . ابن حجر أحمد بن علي بن محمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) الإصابة في تمييز الصحابة ، بيروت ، دار الكتاب العربي د . ت (ج ٢ ، ص ٢٥١) .

(٧) عامر بن الطفيل ، ديوانه (رواية أبي بكر محمد بن القاسم) ، جمع كرم البستاني ، بيروت ، دار صادر ، سنة (١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م ، ص ١٣) . وانظر : ابن قتيبة ، عيون الأخبار (ج ١ ، ص ٢٢٧) والمبرد ، الكامل (ص ٢١٢) المنكب : العريف .

العصبية، وشرف النسب والخلال الكريمة، وهذه خلال تضعف من الابن إلى الحفيد حتى إذا كان الرابع ابتعد عن طريقهم، وأضاع الخلال الكريمة الحافظة لبناء مجدهم، واحتقرها، وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف، وإنما هو أمر موجب لهم منذ النشأة بمجرد انتسابهم، فيراً بنفسه عن أهل عصبيته ويرى الفضل له عليهم^(١).

ورئيس القبيلة الناجح في إدارته هو الرئيس الفطن الذي يستمد رأيه من رأي أشرف القبيلة ووجوهها. ويمكن أن نطلق على هؤلاء تسمية (مجلس شورى، أو هيئة عليا، أو مشيخة القبيلة، أو كما أطلق عليه شعراؤهم مجلس السراة)، ويقول الشاعر الجاهلي مبيّناً وظيفة هؤلاء^(٢):

والبيت لا يُتتى إلا له عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهّالهم سادوا
إذا تولّى سراة القوم أمرهم فما على ذاك أمر القوم فازدادوا^(٣)

لقد كان لهؤلاء «السراة» رقابة على الرئيس (الشيخ)، ولهم مجامع للمداولة في شؤون الحرب والسلم، وأما مركزهم الذي يجتمعون فيه فهو بيت رئيس القبيلة أو البيوت التي يجلس فيها مساءً للسمر^(٤).

أما دستور القبيلة فهو مجموعة من التقاليد والأعراف الذي حفظته القبيلة من موروثات الآباء والأجداد، فهم يعتزون بهذه ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ولعل هذا القانون ينحصر في كلمة (العصبية) إذ منها تتبع قواعده وأعرافه^(٥).

ونلمح كذلك في التنظيمات القبلية مجموعة من الأشخاص - غير الشيخ ومشيخة القبيلة (سراة القوم) - ولهم دور إداري بارز في حياة القبيلة منهم «العريف»^(٦) وهذا

(١) ابن خلدون، المقدمة (ص ١٥٤).

(٢) هو الشاعر الجاهلي «الأفوه الأودي» وهو صلاحة بن عمرو بن مالك بن أود، لقب بالأفوه؛ لأنه كان غليظ الشفتين، ظاهر الأسنان، فهو من كبار شعراء الجاهلية القدماء. انظر: عبد العزيز الميمني، الطرائف الأدبية، مجموعة من الشعر القديم تحقيق: عبد العزيز الميمني، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة سنة (١٩٣٧م) (ص ٢).

(٣) الميمني، الطرائف الأدبية (ص ١٠).

(٤) الدوري، نظم (ص ٧). والشريف، مكة والمدينة (ص ٢٦، ٢٧). ومولوي، الإدارة العربية (ص ٢٣).

(٥) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨هـ) مجمع الأمثال، تحقيق: محمد شحبي الدين عبد الحميد، مطبعة السنن المحمدية (١٩٥٥م)، (ج ١، ص ١٧).

(٦) ابن منظور، اللسان (ج ٩، ص ٢٣٨). الألويسي، بلوغ الأرب (ج ٢، ص ١٨٦).

ينطبق جيداً على من يتولّى أمر القبيلة ، ولاسيما في القبائل التي تتبع الدول ، فيكون العريف عيناً للملك على القبائل ، و « النقيب » ^(١) وهو شخصية إدارية ، ولكنه أقل أهمية من شخصية الرئيس .

ولكن يلاحظ أن هناك تداخلاً بين المهمة الإدارية لكل من العريف والنقيب فجعلهم بعضهم شخصاً واحداً ، و « الرائد » ^(٢) ومهمته الإدارية أن يبحث للقبيلة عن الماء والكأ للنزول عليه ، وهذه مهمة خطيرة ؛ لأن عليها تتوقف حياة الماشية عماد حياة القبيلة .

ولقد كان هناك وظائف عسكرية مهمة في القبيلة منها : « الربيعة » ^(٣) ويقوم بمهمة تسقط أخبار العدو ؛ لئلا يدهمهم على حين غرة ، و « الفارس » ^(٤) الذي تتوقف عليه نتيجة المعركة وحسمها ، و « حامل الراية » ^(٥) وظيفة أخرى ، به يستمد المقاتلون صمودهم ، وتحت ظل رايته يقاتلون ، وعليها يجتمعون ويلتفون ، وهناك « العرافون » و « الكهنة » و « الشعراء » ^(٦) ، ولهؤلاء جميعاً دور بارز في حياة القبيلة العربية .

أما القانون الجنائي الذي تمثل في عقوبة « الخلع » ^(٧) و « التغريب » ^(٨) فيطبق على المجرمين الذين يرتكبون جرائم كبيرة ، كالقتل أو السرقة أو الخيانة ، وغير ذلك . وتشير المصادر إلى أن القانون القبلي ضَمِن لرئيس القبيلة مجموعة من الحقوق الأدبية والمادية . أما الأدبية : فأهمها توقيره واحترام شخصه ، وطاعته والدفاع عن عرضه وشرفه ^(٩) . وأما المادية : فهي مجموعة من الامتيازات التي يمتاز بها عن أفراد قبيلته ،

-
- (١) الأصفهاني الحسين بن محمد (ت ٥٠٢ هـ) المفردات في غريب القرآن ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، بيروت دار المعرفة ، د . ت (ص ٥٠٣) . وابن منظور ، اللسان (ج ٩ ، ص ٢٣٨) . والألوسي ، بلوغ الأرب (ج ٢ ، ص ١٨٥) .
- (٢) الزبيدي ، التاج (ج ٢ ، ص ٣٥٩) . الألوسي ، بلوغ الأرب (ج ٢ ، ص ١٨٥) .
- (٣) ابن منظور ، اللسان (ج ١ ، ص ٨٠٢) الزبيدي ، التاج (ج ١ ، ص ٦٨) .
- (٤) جواد علي ، المفصل (ج ٥ ، ص ٤٩٦) .
- (٥) م . ن (ج ٤ ، ص ٣٤٥) .
- (٦) الألوسي ، بلوغ الأرب (ج ٢ ، ص ٥ ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٢٣٩) طبعة دار الكتاب العربي ، مصر .
- (٧) الخلع : وهي عقوبة الطرد ؛ إذ تبرأ القبيلة من الشخص المخلوع ، وتخرجه من ديارها ، وتسقط عنه حماية القبيلة . انظر : ابن منظور ، اللسان (ج ٨ ، ص ٧٩) . جواد علي ، المفصل (ج ٥ ، ص ٥٨٧) .
- (٨) التغريب : النفي عن البلد أو الأرض ، وكانوا يستعملون هذه لمن يستهتر بعرف القبيلة . انظر : ابن منظور ، اللسان (ج ١ ، ص ٦٣٩) . الزبيدي ، التاج (ج ١ ، ص ٤١١) .
- (٩) ابن خلدون ، المقدمة (ص ١٤٣) .

فله « المربع »^(١) و « الصفايا »^(٢) و « النشيطة »^(٣) و « الفضول »^(٤) ، وقد جمعها الشاعر^(٥) في قوله :

لك المربع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول^(٦)

أضف إلى ذلك ، أنه كان بإمكان الشيخ أن يحمي نفسه حمى خاصًا لإبله ومواشيه كما فعل كليب بن ربيعة سيد بني تغلب^(٧) .

وهكذا ، فإنه يمكننا القول : إن الوظائف الإدارية في القبيلة العربية اقتصرت على خدمة القبيلة ، وتحقيق حاجتها الداخلية ، والمحافظة على وحدتها ، ولم تتطور لتصبح هذه الوظائف منهجًا إداريًا واضح المعالم مرسوم الخطوات .

* * *

- (١) المربع : ما يأخذه رئيس القبيلة وهو ربع الغنيمة . انظر : ابن منظور ، اللسان (ج ٩ ، ص ٤٥٧) . الزبيدي ، التاج (ج ٥ ، ص ٣٤٠) . جواد علي ، المفصل (ج ٥ ، ص ٢٦٥) .
- (٢) الصفايا : ما يصطفيه الرئيس لنفسه من خيل وسلاح وجواري . انظر : ابن منظور ، اللسان (ج ٩ ، ص ٤٥٧) . والزبيدي ، التاج (ج ٥ ، ص ٣٤٠) .
- (٣) النشيطة : وهو ما أصاب من الغنيمة قبل أن يصير إلى أفراد القبيلة . انظر : ابن منظور ، اللسان (ج ٧ ، ص ٤١٤) والزبيدي ، التاج (ج ٥ ، ص ٣٤٠) .
- (٤) الفضول : ما عجز عن قسمته لقلته . انظر : ابن منظور ، اللسان (ج ٨ ، ص ١٠١) . والزبيدي ، التاج (ج ٥ ، ص ٣٤٠) .
- (٥) هو الشاعر عبد الله بن عنمة بن حرثان بن ثعلبة ، وهو شاعر إسلامي مخضرم . انظر : ترجمته في الإصابة (ج ٥ ، ص ٩٤) . أحمد شاكر ، المفضليات ، جمع وتحقيق : أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون (ط ٣) دار المعارف سنة (١٩٦٤م) (ص ٣٧٨) .
- (٦) الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٥٢١٦هـ) الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمود شاكر ، وعبد السلام هارون (ط ٢) مصر دار المعارف سنة (١٩٦٤م) (ص ٣٧) . وانظر : ابن منظور : اللسان (ج ٨ ، ص ١٠١) . والزبيدي ، التاج (ج ٥ ، ص ٣٤٠) .
- (٧) الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٥٢٥٥هـ) الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، المجمع العلمي العربي الإسلامي ، مكتبة الجاحظ (ج ١ ، ص ٣٢٠) . ابن دريد أبو بكر الحسن بن دريد (ت ٣٢١هـ) الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة السنة المحمدية (١٣٨٧هـ ، ١٩٥٨م) (ص ٣٣٨) . والأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين ابن محمد (ت ٥٣٠٦هـ) الأغاني ، راجعه : عبد الله العلايلي وآخرون (ط ٢) بيروت ، دار الثقافة سنة (١٣٧٦هـ) (ج ٥ ، ص ٣٤) . ابن منظور : اللسان (ج ١٤ ، ص ١٩٩) .

ثالثًا : الإدارة في مكة (١)

إن المعلومات المتوافرة عن الأحوال الإدارية في هذه المنطقة محدودة جدًا ، وأغلبها مستمدٌ من الأوضاع السائدة في مكة ويثرب قبل الإسلام ، التي كان فيها - أي مكة - تنظيمات قائمة لسدِّ الحاجة ، وتأمين الدفاع عن مكة وتنظيم شؤون العبادة فيها .
وتشير المصادر (٢) إلى دور شخصيتين مهمتين في تكوين النظام الإداري لمكة وهما : قصي بن كلاب ، وهاشم بن عبد مناف ، وقد تعاقبت على مكة قبل ذلك مجموعة من القبائل ، ابتداءً بولاية إسماعيل عليه السلام وانتهاءً بولاية خزاعة ، حيث كانت تلي أمر البيت فهم حجابة وخزانه والقوام به (٣) .

وأول ما يواجهنا في إدارة قصي « الإدارة المدنية » ، إذ استطاع أن يجمع قبائل قريش من الشعاب ، ورؤوس الجبال ، وقسم مكة أرباعًا بين قومه ، فبنوا المساكن ، وكانوا ينكرون البناء بمكة تعظيمًا للبيت ، ولا يدخلون مكة نهائيًا ، فإذا جاء الليل خرجوا إلى منطقة الحل ، فلما جمع قصي قومه أذن لهم ببناء البيوت (٤) ، فنزل بنو بغيض بن عامر

(١) مكة : « سميت بهذا الاسم ؛ لأنها تيك أعناق الجبابة ، أو من الازدحام . وقيل : مكة اسم المدينة ، وبكة اسم البيت وتسمى أيضًا : الرأس ، وصلاح ، وأم رحم ، وأم القرى ، وغيرها . ابن الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني (ت ٥٣٤٠) مختصر كتاب البلدان ، ليدن بريل سنة (٥١٣٠٢ ، ١٨٨٥ م) (ص ١٦ ، ١٧) . وانظر : الزمخشري ، الكشاف (ج ١ ، ص ٤٤٦ ، ٤٤٧) . السيوطي ، عبد الرحمن جلال الدين (ت ٩١١ هـ) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، (ط ١) بيروت ، دار الفكر العربي سنة (١٩٨٣ ، ٥١٤٠٣ م) ، (ج ٢ ، ص ٢٦٦) .
(٢) ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٥٢١٨ هـ) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون (ط ٢) القاهرة ، دار الكنوز الأدبية (١٩٥٥ م) (١ م ، ص ١١١ - ١١٢) . وابن سعد محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ) الطبقات الكبرى ، بيروت ، دار صادر د . ت (ج ١ ، ص ٥٢) . والأزرقي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٥٠ هـ) أخبار مكة (ج ١) بيروت مكتبة خياط د . ت (ج ١ ، ص ٤٤ - ٤٦) .
والفاسي : تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد (ت ٨٣٢ هـ) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، مكتبة النهضة الحديثة سنة (١٩٥٦ م) (ج ١ ، ص ٣٥٧ ، ٣٥٨) (ج ٢ ، ص ٢٣) .

(٣) الأزرقي ، أخبار مكة (ج ١ ، ص ٥٩) ابن إسحاق ، وابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٥٧٧٤ هـ) السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، بيروت ، دار الموحد (١٤٠٢ هـ) (ج ١ ، ص ٦٠ ، ٦١) .

(٤) ابن سعد ، الطبقات (ج ١ ، ص ٥٥) . وابن حبيب محمد بن حبيب بن أمية (ت ٢٤٥ هـ) المنق في أخبار قريش ، تصحيح خورشيد أحمد فاروق (ط ١) حيدر آباد ، مطبعة المعارف العثمانية سنة (١٣٨٤ ، ١٩٦٤ م) ، =

وبنو تيم ، وبنو محارب بن فهر بظواهر مكة ، فسمّوا « قريش الظواهر » (١) وسميت سائر البطون بـ « قريش البطاح » وبذلك سمي قصي مجمعا (٢) فقال شاعرهم :
 أبوكم قصي كان يدعى مجمعا به جمع اللّه القبائل من فهر
 وأنتم بنو زيد أبوكم به زيدت البطحاء فخرا على فخر (٣)
 استطاع قصي بهذا الفعل أن يكسب وُدّ قومه ، فنصّبوه رئيسا عليهم ، وكان أول رجل من ولد كعب بن لؤي ترأس عليهم وأطاعوه (٤) .

أنشأ قصي لقومه دار الندوة (٥) كمركز للحكم والإدارة في مكة ، (فكانوا لا ينكحون ولا يتشاورون في أمر ، ولا يعقدون لواء بالحرب إلا منها ، ولا يدخلها إلا من بلغ سن الأربعين ، وكانت الجارية إذا حاضت تدخل دار الندوة ، ثم يشق عليها قيم الدار درعها ، ثم تتحجب ، وكان قصي يفعل ذلك بيده ، ثم أصبحت سنة من بعده

= (ص ٨٣ ، ٨٤) . الأزرقى ، أخبار مكة (ج١ ، ص ٦٠ ، ٦١) . والبلاذري أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ) أنساب الأشراف د . ت (ج١ ، ص ٣٩) . اليعقوبي ، أحمد بن يعقوب بن جعفر (ت ٢٩٢ هـ) تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، دار صادر (١٩٦٠ م) (ج١ ، ص ٢٤٠) .

(١) ابن سعد ، الطبقات (ج١ ، ص ٧٣) . البلاذري ، أنساب (ج١ ، ص ٣٩) . الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، مصر ، دار المعارف د . ت (ج٢ ، ص ٥١) . ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ) الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار الكتاب العربي سنة (١٩٦٧ م) (ج٢ ، ص ١٣) .

(٢) ابن سعد ، الطبقات (ج١ ، ص ٥٥) ابن حبيب ، المنق (ص ٨٣ ، ٨٤) الأزرقى ، أخبار مكة (ج١ ، ص ٦٣ ، ٦٤) . البلاذري ، أنساب (ج١ ، ص ٢٣٩) . اليعقوبي ، تاريخ (ج١ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١) . ابن الأثير ، الكامل (ج٢ ، ص ١٣) .

(٣) الشعر لحذافة بن غانم بن عامر القرشي . انظر : ابن سعد ، الطبقات (ج١ ، ص ٧١) . وابن حبيب ، المنق (ص ٨٤) واليعقوبي ، تاريخ (ج١ ، ص ٢٤٠) والطبري ، تاريخ (ج٢ ، ص ٢٥٦) . (ابن الكلبي) . وابن عبد ربه ، شهاب الدين أحمد محمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ) العقد الفريد تحقيق : محمد سعيد العريان ، دار الفكر د . ت (ج٣ ، ص ٢٣٥) .

(٤) ابن هشام ، السيرة (١٠ ، ص ١٢٤) (ابن إسحاق) . والأزرقى ، أخبار مكة (ج١ ، ص ٦١ - ٦٤) . واليعقوبي ، تاريخ (ج١ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١) . ذكرت هذه المصادر : أن أهل مكة نصّبوا قصيا ملكا ، ويبدو لي أن هذه التسمية غير دقيقة ، بدليل أن قريشا رفضوا أن يتملك عليهم أحد - كما هو واضح - في قصة عثمان بن الحويرث . انظر : الأزرقى ، أخبار مكة (ج١ ، ص ١٤٣ ، ١٤٤) . والفاسي ، شفاء الغرام (ج٢ ، ص ١٠٨) .

(٥) قال السهيلي : « دار الندوة : هي الدار التي كانوا يجتمعون فيها للتشاور . ولفظها مأخوذ من لفظ الندي والنادي والمنتدى ، وهو مجلس القوم يندون حوله ، وهذه الدار صارت بعد بني الدار إلى حكيم بن حزام فباعها بمائة ألف درهم في زمن معاوية » . السهيلي أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت ٥٨١ هـ) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، مصر ، دار الكتب المصرية د . ت (ج٢ ، ص ٥٥) .

حيث كانوا يتبعون ما كان عليه في حياته كالدين المتبع (١).
ومن هذه الدار كانت تنطلق قوافل قريش للتجارة ، وفي فنائها تحط القوافل إذا رجعت (٢) ، فكانت تشكل مركز مكة الرئيسي في معاملاتها الخاصة والعامة .
وكان أهل مكة يجتمعون في فناء الكعبة ، ويسمى « بنادي القوم » أما دار الندوة فلا يدخلها إلا سادات القوم ووجوههم ، وأولو الرأي والشورى فيهم ، وهؤلاء يمثلون عادة العشائر والقبائل المختلفة ، وكانت هناك نوايا خاصة للبطون والأفخاذ تنظر فيها أمورها الخاصة ومشاكلها الداخلية (٣) .

وكان هؤلاء الذين يدخلون دار الندوة يسمون « الملأ » (٤) وهم رجال الإدارة في مكة ينظمون شؤونها العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، دون الخضوع لقانون مكتوب أو دستور منظم ، وترد الإشارة القرآنية ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣] (٥) ، لتوضح مواد هذا القانون وعناصره .

ويلاحظ أن قرارات هؤلاء في معالجة ما يعرض من مشكلات ، وما يجد من قضايا مختلفة ، وما يتخذ من إجراءات ، لم تكن ملزمة لأهل مكة إلا بالإجماع عليها ، ويشير إلى ذلك الفاسي (ت ٨٣٢ هـ) بقوله : « لم يكن أحد من هؤلاء متملكاً على بقية قريش ، إنما ذلك بتراضي قريش عليه » (٦) . وربما قام وجوه العشائر والأسر بدور أكثر فاعلية من دور « الملأ » ، ولاسيما في الأمور التي لم تكن تخص مكة بشكل عام (٧) .

(١) ابن هشام ، السيرة (م ١ ، ص ١٢٥) (ابن إسحاق) . وانظر ابن سعد ، الطبقات (ج ١ ، ص ٧٧) . والأزرقي ، أخبار مكة (ج ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦) . واليعقوبي ، تاريخ (ج ١ ، ص ٢٤١) . والطبري ، تاريخ (ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩) . وابن الأثير ، الكامل (ج ٢ ، ص ٢١) . وابن خلدون ، عبد الرحمن محمد الحضرمي (ت ٨٨٠٨) تاريخ ابن خلدون (ج ١ ، ص ١٦ ، ١٧) .

(٢) ابن هشام ، السيرة (م ١ ، ص ١٢٥) . الطبري ، تاريخ (ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩) . ابن الأثير ، الكامل (ج ٢ ، ص ١٣) .

(٣) الدوري ، نظم (ص ١٠) . جواد علي ، المفصل (ج ٤ ، ص ٤٨) .

(٤) وردت كلمة (الملأ) كثيراً في القرآن بمعنى جماعة ، يجتمعون على رأي . ويبدو أن المراد بها في أكثر تلك المواضع : عليّة القوم من ذوي الرأي والمكانة . وذكر أن الملأ : التشاور ، تشاور الأشراف والجماعة في أمرها . انظر : الطبري محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) تأويل أي القرآن تحقيق محمد محمود شاكر ، مصر ، دار المعارف د . ت (ج ٥ ، ص ٢٩١) . والأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢ هـ) المفردات في غريب القرآن ، تحقيق محمد سيد الكيلاني ، بيروت ، دار المعرفة (ص ٤٧٣) . والزبيدي ، التاج (ج ١ ، ص ١١٩) .

(٥) الزمخشري ، الكشاف (ج ٣ ، ص ٤٨٤) . والرازي ، تفسير (ج ٢٧ ، ص ٢٠٦) . والقرطبي ، الجامع (ج ١٦ ، ص ٧٥) . والسيوطي ، الدر المنثور (ج ٧ ، ص ٣٧٠) .

(٦) الفاسي ، شفاء الغرام (ج ٢ ، ص ١٠٨) . وانظر : جواد علي ، المفصل (ج ٤ ، ص ٤٨ ، ٤٩) . والدوري ، نظم (ص ١٠) .

(٧) جواد علي ، المفصل (ج ٤ ، ص ٤٨) .

لم يكن أهل مكة يخضعون لحكم ملكي أو وراثي ، فليس هناك ملك متوج ، ولا رئيس واحد يحكمها ، وإن كان هناك شخص بارز في « الملأ » هو بمثابة رئيس الملأ إلا أنه لا يستطيع أن يقرر أمراً بعيداً عن مجلس « الملأ »^(١) ، وهكذا فإن هناك تشابهاً كبيراً بين مجلس « الملأ » في مكة ، وبين مجلس « شيوخ أثينا » - في القديم - الذين كانوا يجتمعون في المجلس (Eklesia) للنظر في الأمور^(٢) .

لقد تطورت الممارسات الإدارية في مكة لتصبح « المشورة » وظيفة خاصة يقوم بها أناس من ذوي الرأي والعقل والحكمة ، وكان بنو أسد هم أصحاب هذه الوظيفة ، فكان أهل مكة إذا أرادوا أمراً ذهبوا إلى « يزيد بن زمعة » (ت ٥٨) من بني أسد ، فيعرضونه عليه « فإذا وافقهم والاهم عليه ، وإلا تخير وكانوا له أعواناً »^(٣) .

وقد حاول بعضهم أن يخترق النظام الإداري لمكة ويعلن نفسه ملكاً عليها ، فذهب « عثمان بن الحويرث »^(٤) إلى قيصر ، وطلب منه أن يملكه على قريش ، مقابل أن يدخل قريشاً في طاعة روما ، ويبدو أن الحكام البيزنطيين رأوا في عثمان الشخصية التي يمكنهم بها أن يلعبوا دوراً ما في الجزيرة العربية ، ولكن أهل مكة رفضوا أن يتملك عليهم عثمان ، وانتهى الأمر باغتياله في بيت أحد أقربائه في مكة^(٥) .

أما « الإدارة الدينية » في مكة فتشمل الوظائف الخاصة بالكعبة ومناسك الحج ، وقد قسمت هذه الوظائف بعد وفاة قصي بين بطون مكة وأفخاذها^(٦) .

(١) قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَبِّهِ لَمِنَ الْفَرِيقِينَ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] . قال ابن عباس : « القرينان : مكة والطائف ، والرجلان : عروة بن مسعود والوليد بن المغيرة » . انظر : الرازي ، تفسير (ج ٢٧ ، ص ٢٠٩) .
والقرطبي ، الجامع (ج ١٦ ، ص ٨٣) . السيوطي ، الدر المنثور (ج ٧ ، ص ٣٧٤) .

(٢) جواد علي ، المفصل (ج ٤ ، ص ٤٧) .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد (ج ٣ ، ص ٢٣٦) . وانظر : الألويسي ، بلوغ الأرب (ج ١ ، ص ٢٤٩) . أحمد أبو الفضل ، مكة في عصر ما قبل الإسلام ، (ط ١) ، الرياض ، مطبوعات الملك عبد العزيز سنة (١٩٧٨ ، ١٣٩٨ هـ) (ص ٦٠) .

(٤) الأزرق ، أخبار مكة (ج ١ ، ص ١٤٤) . والوزير بن بكار (٢٥٦) جمهرة نسب قريش وأخبارها ، تحقيق محمود شاعر (ج ١) القاهرة ، دار العروبة (١٣٨١ هـ) (ص ٢٠٩ ، ٢١٠) . والفاسي ، شفاء الغرام (ج ٢ ، ص ١٠٨) . وجواد علي ، المفصل (ج ٤ ، ص ٩٢) .

(٥) الأزرق ، أخبار مكة (ج ١ ، ص ١٤٤) . العقد الفريد ، ابن بكار ، جمهرة (ص ٢١٠) . والفاسي ، شفاء الغرام (ج ٢ ، ص ١٠٨) . ابن حزم ، جمهرة (ص ١١٨) . الزبيدي ، مصعب بن عبد الله (٥٢٣٦ هـ) نسب قريش ، نشرة بروفنسال ، دار المعارف د . ت (ص ٢١٠) .

(٦) ابن هشام ، السيرة (م ، ص ١٣٠) (ابن إسحاق) . وابن سعد ، الطبقات (ج ١ ، ص ٧٢ ، ٧٣) . =

وأهم هذه الوظائف وظيفه « الرفادة » ، فقد فرض قصي على قريش خرجًا تخرجه من أموالها ، وتدفعه إليه ، فيصنع به طعامًا يقدمه للحجاج في أيام عرفات ومنى ، على اعتبار أن الحجاج هم ضيوف الله ^(١) ، فقال لهم كما يروي ابن إسحاق (ت ١٥١ هـ) « يا معشر قريش ، إنكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيفُ الله ، وزوّار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج ، يصدروا عنكم ، ففعلوا » ^(٢) . ويدل هذا العمل على حكمة قصي ؛ لأن إمداد الحجاج بالطعام يدعوهم إلى القدوم إلى مكة ، ويكسب سكان الحرم وأهله احترامًا وتقديرًا لدى القبائل الضاربة في أعمال البوادي ، والنازلة على خطوط القوافل وطرقها ، وظهر هذا الكلام في شعر الأعراب الذين مدحوا قصيًا فقالوا : -

آب الحجيج طاعمين دسمًا أشبعهم زيد قصي لحمًا ^(٣)
ولبتنا محضًا وخبزًا هشمًا

لقد أفاضت المصادر في ذكر فضائل هاشم وكرمه ؛ إذ اشتهرت هذه الوظيفة في زمنه ^(٤) ، فكان يطعمهم الخبز والثريد ، فقال الشاعر يمدحه ويصف كرمه :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه قوم بمكة مُسنّتين عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأضياف ^(٥)

ويظهر أن الذي كان يتولى الرفادة من بني هاشم هم الأغنياء ؛ لأنها تحتاج إلى مال وثروة ، فوليتها المطلب بن هاشم ، ومن بعده عبد المطلب ، فأقامها للناس ، وشرف في قومه ، فكانت هذه الوظيفة في نسله ، فوليتها العباس بن عبد المطلب « ت ٣٢ هـ » ، وظهر الإسلام وهو على ذلك ، فأقره رسول الله ﷺ ^(٦) .

= الأزرقي ، أخبار مكة (ج ٢ ، ص ٦٦ ، ٦٧) (ابن إسحاق) . والبلاذري ، أنساب (ج ١ ، ص ٥٢) .

(١) ابن هشام ، السيرة (م ١٣٠ ص) . وابن سعد ، الطبقات (ج ١ ، ص ٧٢ ، ٧٣) .

(٢) ابن هشام ، السيرة (م ١٣٠ ص) . وانظر : ابن سعد ، الطبقات (ج ١ ، ص ٧٣) . والبلاذري ، أنساب

(ج ١ ، ص ٥٣) . (٣) البلاذري ، أنساب (ج ١ ، ص ٥١) .

(٤) ابن هشام ، السيرة (م ١٣٠ ص) (ابن إسحاق) . ابن سعد ، الطبقات (ج ١ ، ص ٧٣) . الأزرقي ، أخبار

مكة (ج ٢ ، ص ٦٧) (ابن إسحاق) . البلاذري ، أنساب (ج ١ ، ص ٥٢) . الطبري ، تاريخ (ج ٢ ، ص ٢٥١ -

٢٥٤) (محمد بن أبي بكر) .

(٥) الشعر للشاعر عبد الله بن الزبيري . انظر : ابن هشام ، السيرة (م ١٣٦ ص) . القالي أبا علي إسماعيل بن

القاسم البغدادي (ت ٣٥٦ هـ) ذيل الأمالي والنوادر ٣ مطبعة إسماعيل بن يوسف د.ت (ص ٢٠١) .

(٦) ابن هشام ، السيرة (م ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٧) . وابن سعد ، الطبقات (ج ١ ، ص ٨١ - ٨٣) . =

وهكذا ، فإنه نظرًا لشح الماء في مكة ، واضطرار الناس إلى جلبه من أماكن بعيدة ، قام هاشم وحفَر بئرًا ، كما فعل قصي من قبل ، فيسر بذلك الماء لمكة (١) ، وتكمن أهمية السقاية من كون مكة بلدًا شحيحًا في مياهه ، حارًا في مناخه .

أصبحت وظيفة السقاية بالغة الخطورة ، بعد أن طمرت بئر زمزم ، وكانت عملية السقاية تتم عن طريق جمع الماء في حياض من آدم ، كانت على عهد قصي توضع بفناء الكعبة ، وينقل إليها الماء العذب من الآبار على الإبل في المزاد والقرب ، وربما قذف فيها التمر والزبيب لكسر ملوحتها (٢) .

أخذ هاشم يسقي الحجاج ؛ قرية إلى رب البيت مادام حيًا ، فكان يفعل ذلك طوال حياته (٣) ، ثم استقرت هذه الوظيفة في عقبه ، فتشير الروايات إلى أن عبد المطلب جهز الحجاج بالماء العذب (٤) ثم حفر بئر زمزم (٥) ، فكان يقدم الماء ويمزجه بالزبيب (٦) . ويبدو أن موضوع السقاية لم يقتصر على الماء ، بل تعدى ذلك إلى أن يقدم عبد المطلب للحجاج الحليب مع العسل (٧) ، وقام بوظيفة السقاية بعده ابنه العباس (ت ٣٢ هـ) (٨) .

هناك روايات تبين مدى التنافس بين أشرف مكة في توفير ماء الشرب للحجاج (٩) ، فقييل : إن سويد بن هرمي ، كان أول من أعطى الحجاج الحليب ليشربوا (١٠) ، كما أعطى أبو أمية بن المغيرة « زاد الراكب » وأبو وداعة السهمي الحجاج عسلًا (١١) .

- = والأزرقي أخبار مكة (ج١ ، ص ٧١) . والطبري ، تاريخ (ج٢ ، ص ٢٥١ - ٢٥٤) (محمد بن أبي بكر) . والنويري : نهاية الأرب (ج١٧ ، ص ٣١٣) . الحلبي ، نور الدين أبو الفرج علي بن برهان (ت ١٠٤٤ هـ) إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون « السيرة الحلبية » (ج١ ، ص ١٦ ، ١٧) . الألويسي ، بلوغ الأرب (ج١ ، ص ٢٥٠) . (١) ابن سعد ، الطبقات (ج١ ، ص ٧٨) . والأزرقي ، أخبار مكة (ج١ ، ص ٦٩) . والزبيدي ، تاج العروس (ج٣ ، ص ٣٦) . (٢) الأزرقي ، أخبار مكة (ج١ ، ص ٦٦) . والطبري ، (ابن إسحاق) . والنويري ، نهاية الأرب (ج١٦ ، ص ٣٥) . والحلبي ، السيرة (ج١ ، ص ١٦) . كسر ملوحتها : تحليتها . (٣) ابن سعد ، الطبقات (ج١ ، ص ٧٨) . والنويري ، نهاية الأرب (ج١٦ ، ص ٣٥) . (٤) المسعودي ، علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، دار الأندلس سنة (١٩٦٥ م) (ج٣ ، ص ١٠٣) . (٥) المسعودي ، مروج (ج٢ ، ص ١٠٣) . الأزرقي ، أخبار مكة (ج١ ، ص ٧٠) . (٦) الأزرقي ، أخبار مكة (ج١ ، ص ٧٠) . (٧) م . ن (ج١ ، ص ٧٠) . (٨) السيوطي ، الدر المنثور (ج٤ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥) . ابن عبد ربه ، العقد الفريد (ج٣ ، ص ٢٣٦) . (٩) الزبيدي ، نسب قريش (ص ٣٢ ، ١٩٧ ، ١٩٨) . (١٠) م . ن (ص ٣٤٢) . (١١) ابن حبيب ، المحبر (ص ١٧٧) . كستر ، الحيرة ومكة وتميم وصلاتها بالقبائل العربية ، ترجمة يحيى الجبوري ، جامعة بغداد ، سنة (١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م) (ص ٥٥ ، ٥٦) .

وتشير الآية إلى هذا التنافس ، حيث أصبحت هذه الوظيفة من مفاخر قريش الكبرى ، قال تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (١) [التوبة: ١٩] وهكذا ؛ يبدو لنا أن السقاية لم تكن وظيفة فردية بقدر ما كانت ذات صفة أو سلطة رسمية .

وأما السدانة «الحجابه» وهي رعاية البيت (٢) ، والقيام على خدمة الزائرين ، فكانت من الوظائف المهمة ، ولاسيما أن الكعبة تُعدُّ من أقدس مقدسات العرب ، فكانت ولايتها إلى بني عثمان من عبد الدار ، ثم وليها عبد العزى بن عثمان ثم أبو طلحة (عبد الله بن عبد العزى) ، ثم وليها ولده ، حتى كان فتح مكة فأبقاها النبي ﷺ مع عثمان بن طلحة «ت ٤٢ هـ» (٣) .

ويلاحظ أن هذه الوظيفة بقيت في نسل عثمان إلى يومنا هذا ، ذلك بأن النبي ﷺ قال : « خذوها يا آل عثمان خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم » (٤) . وكذلك فإن «العمارة» كانت من مفاخر قريش ؛ إذ أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٩] وكان يقوم بها العباس (ت ٣٢٢ هـ) وشيبة بن عثمان ، وكانت هذه الوظيفة تعني أن يُمنع من يتكلم بالسوء في البيت الحرام (٥) .

وكانت هناك وظائف إدارية دينية أخرى ، ولكنها أقل شأنًا من سابقتها ، فالإفاضة من مزدلفة كانت في «عدوان» ، حيث لا يفيض الناس حتى يفيض من يتولى هذه المهمة من عدوان ، يتوارثون ذلك أبًا عن جد ، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام «أبو سيارة عميلة بن الأعزل» (٦) .

وأما الأموال التي تسمى للآلهة ، وهي «الأموال المحجرة» ، فكانت وظيفة للحارث ابن قيس من بطن سهم (٧) . وكان صفوان بن أمية (ت ٤١ هـ) من جمح ، يتولى عملية

(١) انظر : الطبري ، تفسير (ج ١٤ ، ص ١٧٢) .

(٢) الألويسي ، بلوغ الأرب (ج ١ ، ص ٢٤ ، ٢٤٩) . أبو الفضل ، مكة في عصر ما قبل الإسلام (ص ٦٠ ، ٦٩) .

(٣) الأزرق ، أخبار مكة (ج ١ ، ص ٢٢) . ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي ، (ت ٤٥٦ هـ) ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، مصر ، دار المعارف (١٣٨٢ هـ ، ١٩٦٢ م) (ص ١٢٧) .

(٤) أبو الفضل ، مكة (ص ٦٠) . (٤) ابن هشام ، السيرة (٢ م ، ٤١٢) .

(٥) الطبري ، تفسير (ج ١٤ ، ١٧٢) . وابن حجر ، الإصابة (ج ٢ ، ص ٢٧١) . وابن عبد ربه ، العقد

الفريد (ج ٣ ، ص ٢٣٦) .

(٦) ابن هشام ، السيرة (١ م ص ١٢٠ ، ١٢١) . وابن كثير ، السيرة النبوية (ج ١ ، ص ٩٥) .

(٧) ابن عبد ربه ، العقد الفريد (ج ٣ ، ص ٢٣٦) . والألويسي ، بلوغ الأرب (ج ١ ، ص ٢٤٩) . وأبو الفضل ، مكة (ص ٦٠) .

« الآبار » إذ كانت الأزمات تضرب عند هبل^(١) . ويمكن القول إن هذه الوظيفة كانت ذات هدف اقتصادي ؛ إذ تجمع الأموال باسم الآلهة ، وقد أبطها الإسلام ، وأشارت الآية إلى ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْفَنَاءُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ بَيْعٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة : ٩٠] .

وكانت « صوفة » وهي من جرهم تتولى أمر « الإجازة » بالناس من عرفة إذا نفروا إلى منى ، وبقيت كذلك حتى قاتلهم قصي ، وتولى هو هذه الوظيفة ، وهناك روايات تشير إلى أنها (أي جرهم) تولت ذلك حتى انقرض آخرهم^(٢) ، وبعد تقسيم الوظائف الإدارية بين بطون قريش وأفخاذها ، ورثت تميم هذه الوظيفة ، كما يقرر ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) في جمهرته^(٣) .

وهناك وظيفة أخرى غريبة هي « النسيء » فكانت تلي ذلك كنانة ، فكانوا ينسئون الشهور ، يلي ذلك منهم بنو ثعلبة بن الحارث بن مالك ، وكانوا يسمون « القلامسة » فكان يقوم « القلمس » أيام التشريق ، فيسألونه أن يؤخر المحرم ، فيؤخر « المحرم »^(٤) . وقد أشارت الآية إلى هذه الوظيفة وجعلتها جزءاً من الكفر : ﴿ إِنَّمَا السَّبْتُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُكْرِمُونَهُ عَامًا ﴾ [التوبة : ٣٧] .

أما « الإدارة المالية » لمكة فلها أهمية خاصة ، ويمكن القول : إن الوظائف الدينية في كثير من جوانبها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإدارة مكة الناجحة لشؤون تجارتها وأموالها .

تقع مكة في وادٍ غير ذي زرع ، لذلك كان عماد حياة أهلها التجارة ، وهناك إشارة تبين أن قريشاً كانوا تجاراً ، ولم تكن تجارتهم تتجاوز مكة ، فكان التجار يحملون تجارتهم إلى مكة يبيعون بضائعهم لأهلها^(٥) ، وبقيت تجارتهم كذلك حتى ذهب هاشم إلى الشام ، وأظهر من الكرم وحسن المعاملة ما جعل قيصر يسمع به ويقربه ، وطلب من قيصر أن يكتب له كتاباً يؤمن به تجارة مكة ، وكذلك فعل هاشم مع

(١) م . ن (ج ٣ ، ٢٦) . م . ن (ج ١ ، ٢٤٩) . م . ن (ص ٦٠) .

(٢) ابن هشام ، السيرة (١٠ ، ص ١١٩) . والطبري ، تاريخ (ج ٢ ، ص ٢٥٧) (ابن إسحاق) ابن كثير ، السيرة (ج ١ ، ص ٩٥) . الشيخ الرئيسي أبو البقاء وهبة الله الحلبي (المتوفى في النصف الأول للقرن السادس) . المناقب المزيدية تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسات ط ١ مكتبة الرسالة عمان (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤) (ص ٣٢١ - ٣٢٣) .

(٣) ابن حزم ، جمهرة (ص ١٢ ، ص ٣٠٣) . وكستر . الحيرة (ص ٧٨ ، ٧٩) .

(٤) ابن هشام ، السيرة (١٠ ، ص ٤٣) . وابن حبيب ، المحبر (ص ١٥٦ ، ١٥٧) المنق (ص ٢٧٣) . والطبري ،

تاريخ (ص ٢٨٠) . وابن حزم ، جمهرة (ص ١٨٩) . وأبو البقاء ، المناقب المزيدية (ص ٣٢٠) .

(٥) القالي ، ذيل الأمالي (ص ٢٠١) . وكستر ، الحيرة ومكة (ص ٤٣) .

سادات القبائل وأشرفهم^(١) ، وبحسب روايات المصادر ، يكون هاشم أول من أخذ الإيلاف^(٢) ، ثم أخذه المطلب من اليمن ، وعبد شمس من الحبشة ، ونوفل - أصغرهم - من العراق^(٣) ، وبذلك استطاع أهل مكة أن يديروا تجارة دولية واسعة شملت هذه الدول جميعًا .

ويلاحظ أن هاشمًا قد جعل للقبائل جزءًا من أرباحه ، وأشركهم في تجارة مكة ، يقول الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) : « وشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ، وجعل لهم ربحًا »^(٤) ، وقال : « فكان المقيم رابحًا ، والمسافر محظوظًا »^(٥) .

أما على المستوى الداخلي ، فقد استطاع هاشم أن يشرك الفقراء مع الأغنياء في التجارة ، وصارت القوافل مشروعًا مشتركًا ، يشترك فيها أهل مكة جميعًا ، وقد ظهر هذا في أبيات مطرود بن كعب القائل :

والخالطين فقيرهم بغنيهم
حتى يكون فقيرهم كالكافي^(٦)

- (١) ابن حبيب ، المنق (ص ٣١ - ٤٠) . المحجّر (ص ١٦٢) . الطبري ، تاريخ (ج ٢ ، ص ٢٥٢) (محمد بن الكلبي) . القالي ، ذيل الأمالي (ص ٢٠١) . ابن الأثير ، الكامل (ج ٢ ، ص ١٦) .
- (٢) سمي ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) الإيلاف (حلقًا) . ويستعمل ابن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) كلمة (الإيلاف) . ويستعمل البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) كلمة (عصام) ، ويستعمل الطبري (ت ٣١٠ هـ) الكلمتين (عصام وجعل) . ويستعمل القالي (ت ٣٥٦ هـ) كلمة (العهد) . انظر : ابن سعد ، الطبقات (ج ١ ، ص ٧٥ - ٨٠) . ابن حبيب ، المحجّر (ص ١٦٢) . البلاذري ، أنساب (ج ١ ، ص ٥٩) . الطبري ، (ج ٢ ، ص ٢٥٢) . القالي ، ذيل الأمالي (ص ٢٠١) .
- (٣) ابن حبيب ، المنق (ص ٣١ - ٤٠) . المحجّر (ص ١٦٢) . البلاذري ، أنساب (ج ١ ، ص ٥٩) . يعقوبي ، تاريخ (ج ١ ، ص ٢٤٢) . الطبري ، تاريخ (ج ٢ ، ص ٢٥٢) . (محمد بن الكلبي) . القالي ، ذيل الأمالي (ص ٢٠١) . العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥ هـ) الأوائل ، تحقيق محمد السيد الوكيل ، المدينة المنورة ، سنة (١٩٦٦ م) (ص ١٧) . والثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصر ، دار المعارف سنة (١٩٦٥ م) (ص ١١٥ ، ١١٦) . وصالح درادكة ، إيلاف قريش ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ، العددان : (١٧ ، ١٨) ، (١٩٨٤ م) (ص ٥٥) .
- (٤) الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) رسائل الجاحظ ، جمع حسن السندي ، القاهرة ، المكتبة التجارية سنة (١٩٣٣ م) (ص ٧٠) . والثعالبي ، ثمار القلوب (ص ١١٥ ، ١١٦) . القالي ، ذيل الأمالي (ص ٢٠١) . (ص ٥١) الجاحظ ، رسائل (ص ٧١) .
- (٦) البلاذري ، أنساب (ج ١ ، ص ٥٨) (ابن الكلبي) . ويعقوبي ، تاريخ (ج ١ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢) . الطبرسي ، وأبو علي الفضل بن الحسين ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، تحقيق السيد هاشم الرسولي الملالي ، والسيد فضل الله الزيدي الطباطبائي (ط ١) بيروت ، دار المعرفة (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) (ج ١٠ ، ص ٨٢٧ - ٨٣١) (سورة قريش) . وكستر ، الحيرة ومكة (ص ٥١) .

وبهذه الإدارة الجيدة من هاشم على المستويين الخارجي بأخذ الإيلاف من رؤساء الدول والقبائل العربية ، والداخلي بإشراك أصحاب المبالغ الصغيرة مع الأغنياء ، توسعت تجارة قريش ، وأصبحت تلعب دورًا مهمًا في التجارة الدولية في ذلك الوقت .

وبحكم موقع مكة ودورها التجاري وتوسطها القبائل العربية ، أصبحت مكة سوقًا للتبادل التجاري ، تحصل القبائل العربية منها على حاجاتها ، واستطاعت مكة أن تحافظ على هذا المركز بأن حرّمت الظلم في أسواقها ، ومن أجل هذه الغاية كان حلف الفضول^(١) ، حيث تعاقدت خمسة بطون قرشية أن لا تدع مظلومًا إلا نصرته^(٢) ، ويظهر أن هذا الحلف جاء بعد حصول نوع من التجاوزات في الأسواق المكية ، وترد إشارات إلى أن هذه الأسواق كانت تدار بطريقة دقيقة ، فكان لكل سوق قوم ينظمون شؤونه ، ويحافظون على الأمن والنظام فيه ، وكان هناك من يحمل السلاح في الأسواق لردّ المظالم^(٣) . ويشير إلى ذلك اليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ) بقوله : « وكان في العرب قوم يستحلون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق فسموا المحلين ، وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر فيسمون الذادة المحرمين »^(٤) .

وتشير الروايات إلى دقة إدارة هذه الأسواق ، فلكل سوق تاريخ معين يفترض ألا تتجاوزه ، فيسمى لها تاريخ معين تبدأ فيه ، ويسمى لها تاريخ تنتهي فيه ، وقد ذكر هذه التواريخ مفصلة ابن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) في المحجّر^(٥) ، واليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ) في التاريخ^(٦) ، والقلقشندي (ت ٨٢١ هـ) في صبح الأعشى^(٧) .

(١) قال النبي ﷺ عن حلف الفضول : « شهدت حلف المطيين مع عمومتي وأنا غلام ، فما أحب أن لي حمر النعم وإني أنكته » رواه أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) . مسند أحمد ، بيروت ، دار صادر ، المكتب الإسلامي . د . د . ت (ج ١ ، ص ١٩٠ ، ١٩٣) . وانظر : ابن هشام ، السيرة (١٠ ، ص ١٢٢) . ابن سعد ، الطبقات (ج ١ ، ص ١٢٦ - ١٢٨) . وابن حبيب ، المحجّر (ص ١٦٧) . المنمق (ص ٤٥ - ٥٠) . والمقدسي ، مظهر بن طاهر (ت ٣٦٠ هـ) كتابه البدء والتاريخ ، بغداد مكتبة المثنى سنة (١٨٩٩ م) (ج ٤ ، ص ١٣٧) .

(٢) ابن هشام ، السيرة (١٠ ، ص ١٢٢) . وابن سعد ، الطبقات (ج ١ ، ص ١٢٦) . وابن حبيب ، المنمق (ص ٤٥ - ٥٠) . المحجّر (ص ١٦٧) . واليعقوبي ، تاريخ (ج ٣ ، ص ١٧ ، ١٨) . والفاسي ، شفاء الغرام (ج ٢ ، ص ٩٩ ، ١٠٠) .

(٣) جواد علي ، المفصل (ج ٧ ، ص ٣٦٩) . (٤) اليعقوبي ، تاريخ (ج ١ ، ص ٢٧١) .

(٥) ابن حبيب ، المحجّر (ص ٢٦٣ - ٢٦٨) . (٦) اليعقوبي ، تاريخ (ج ١ ، ص ٢٣٦) .

(٧) القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١ هـ) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، القاهرة ، وزارة الثقافة المصرية د . ت (ج ١ ، ص ٤١٠) (نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية) .

وظهر في مكة نظام « الخمس » وهو ذو دلالة اقتصادية ، وكانت مكة تطبقه على غير القرشيين ، وهناك صلة بين نظام « الإيلاف » ونظام « الخمس » ^(١) ، فالإيلاف امتازت به مكة عند القبائل العربية والدول المجاورة خارج مكة ، و « الخمس » امتازت به مكة عند القبائل داخل مكة أيام الموسم ^(٢) .

وتشير المصادر إلى أن مكة أصبحت سوقاً مالية ، فقد لعب الصيارفة دوراً رئيسياً في الحياة الاقتصادية ، فكان هؤلاء يديرون عملية تبادل السلع والعملات ، ويقرضون التجار ، وأحياناً كان يلجأ الصيرفي إلى التجار في حالة الإفلاس ، فيشير المبرد (ت ٢٨٥ هـ) : « أنه افتقر رجل من الصيارفة يالحاح الناس في أخذ أموالهم التي كانت لديه ... فسأل جماعة من الجيران أن يسيروا معه إلى رجل من قریش كان موسراً لمبادلته ... فذهبوا إليه » ^(٣) وهذا يدل على أن الصيارفة كانوا يتاجرون بالأموال ، فهم مركز مصرفي أخذوا وعطاءً .

بقي أن نذكر في إدارة مكة المالية قضية « الضرائب » التي كانت تأخذها مكة . فقد اصطلحت قریش أن تأخذ ممن كان ينزل عليها في الجاهلية حقاً دعت « حق قریش » ^(٤) ، فكانوا يأخذون من الغريب القادم إليهم عن هذا الحق بعض ثيابه أو بعض بدنته التي يَنَحْر . ونجد مثلاً على ذلك (أن ظويلم - مانع الحریم - خرج يريد الحج فنزل على المغيرة بن عبد الله المخزومي ، فأراد المغيرة أن يأخذ منه ما كانت قریش تأخذ فامتنع عليه ظويلم) ^(٥) .

وكانت هناك ضريبة « العشر » مقررة في كل سوق ، يستوفها عشارون ممن يبيع ويشترى المشرف على السوق ومن في أرضه يقام ^(٦) . ومن هنا ، فقد تنافس هؤلاء

(١) الخمس : قال ابن إسحاق : « وقد كانت قریش - لا أدري أقبيل الفيل أم بعده - ابتدعت قضية الخمس ، فقالوا : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاية البيت ، فأصبحوا لا يعظمون شيئاً من الحل كما يعظمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت بكم العرب ، فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها » . انظر : ابن هشام ، السيرة (م ، ص ١٩٩) . وانظر الأزرقی ، أخبار (ج١ ، ص ١١٨ ، ١١٩) .

(٢) ابن هشام ، السيرة (م ، ص ١٩٩) . ابن سعد ، الطبقات (ج١ ، ص ٧٢) . ابن حبيب ، المحيّر (١٧٨ ، ١٧٩) . الأزرقی ، أخبار مكة (ج١ ، ص ١١٩ - ١٢٣) . الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) البلدان ، نشره صالح العلي مستقلة من مجلة كلية الآداب بغداد مطبعة الحكومة سنة (١٩٧٠) (ص ٤٧٢) . ودرادكة ، الإيلاف مجلة دراسات تاريخية عدد (١٧ ، ١٨) (ص ٥٤ - ٥٥) .

(٣) المبرد ، الكامل (ص ٤٥٩) . (٤) ابن دريد ، الاشتقاق (ص ٢٨٢) .

(٥) سمي مانع الحریم ؛ لأنه امتنع من دفع ثيابه أو بعض بدنته لأهل مكة ، انظر ابن دريد ، الاشتقاق (ص ٢٨٢) .

(٦) ابن منظور ، اللسان (ج٤ ، ص ٥٦٨) . الزبيدي ، التاج (ج٣ ، ص ٤٠٠) .

الأشراف على رياضة السوق ؛ لأنهم كانوا يأخذون « المكس » أيام السوق ^(١) ، ولعل هذه الأموال التي تعثر بها البضاعة ، كان نصيب منها يذهب للإتفاق على الحجابة والرفادة ، وتحمل الأشتاق ونفقات الدفاع عن المدينة ^(٢) . ولنا أن تصور كيف يكون هناك نظام معين لحفظ السجلات ، تحفظ بمقتضاه معاهدات التحالف والاتفاقيات التجارية .

أما « الإدارة العسكرية » في مكة ، فكانت ضرورية لحماية الأمن والدفاع عن مكة وتجارتها . وتذكر الروايات أن الذين كانوا يدافعون عن الحرم هم قريش « الظواهر » إذ كانوا أصحاب بأس وشدة فشموا « المناسر » ^(٣) ، أما « قريش البطاح » فكانوا أهل غنى وجاه وسيادة فشموا « الضب » للزومها الحرم ^(٤) .

وكان هناك جماعة متطوعة للدفاع عن مكة وهم « الأحابيش » فتحالفوا هم وأهل مكة « تحالفوا بالله إنا ليد على غيرنا ما سَجَا ليل وأوضح نهار ، وما رسا حبشي مكانه » ^(٥) .

ويظهر أن أهل مكة رأوا في الأحابيش قوة يمكن استغلالها في الدفاع عن الحرم فعقدوا معهم حلفاً ، وقد وصف شاعر الأحابيش هذا الحلف بقوله :

إِنَّ عَمْرًا وَإِنَّ عَبْدَ مَنْفٍ جعلَا الحلفَ بيننا أسبابًا ^(٦)

ويصف اليعقوبي (ت ٢١٢ هـ) هذا الحلف بقوله : « وكان تحالف الأحابيش على الركن ، يقوم رجل من قريش والآخر من الأحابيش ، فيضعان أيديهما على الركن فيحلفان بالله وحرمة البيت والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها ... فسمي حلف الأحابيش » ^(٧) .

(١) ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ، دار إحياء التراث العربي ، سنة (١٩٧٩ م) (ج ٤ ، ص ١٤٢) .

(٢) جواد علي ، المفصل (ج ٧ ، ص ٤٨٠) .

(٣) المناسر : طلائع الجيش . انظر : البلاذري ، أنساب (ج ١ ، ص ٣٩ ، ٤٠) . ابن الأثير ، الكامل (ج ٢ ، ص ١٣) .

(٤) م . ن (ج ١ ، ص ٤٠) . م . ن (ج ٢ ، ص ١٣) .

(٥) وهم بنو الصطلق والحياض بن سعد بن عمرو وبنو الخارث بن خزيمه اجتمعوا بذنب حبشي ، وهو جبل بأسفل مكة ؛ فسموا بذلك . وقيل : سموا بذلك لاجتماعهم ، والتحابش هو : التجمع في كلام العرب . انظر : ابن رشيقي أبا علي

الحسن ابن رشيد القيرواني (ت ٤٥٦ هـ) العملة في محاسن الشعر وأدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (ط ١) مصر ، مطبعة السعادة (١٢٨٣ هـ ، ١٩٦٤ م) (ج ٣ ، ص ١٩٤) . ابن منظور ، اللسان (ج ٦ ، ص ٣٧٨) .

(٦) م . ن (ج ٢ ، ص ١٩٤) . م . ن (ج ٦ ، ص ١٧ ، ٢٧٨) . ابن حبيب ، المحبر (ص ٢٤٦) . والبلاذري ،

أنساب (ج ١ ، ص ٥٣ ، ٧٩) . (٧) اليعقوبي ، تاريخ (ج ١ ، ص ٢١٢) .

وفي حالة النفير كان الأغنياء يشاركون في تمويل الأفراد وتسليحهم ، فهذا عبد الله بن جدعان كان في حرب الفجار على قومه « بني تيم » وأمدهم بالسلاح والمال ، فأعطى مائة رجل سلاحًا كاملًا ، وذلك « يوم شعطة » ، غير ما ألبس من بني قومه والأحايش^(١) وحمل مائة رجل على مائة بعير ، قيل : ألف رجل على بعير وذلك يوم شرب^(٢) .

ولا شك في أن الأغنياء غيره كانوا يشاركون بالنفقة على السلاح والتجهيز للحرب في حالة تعرض مكة للخطر .

وكان من ضمن استعداد مكة للحرب أنها أوجدت بعض الوظائف في السلم عهدت إلى أصحابها القيام ، منها : « القبة والأعنة »^(٣) وكانت هذه الوظيفة إلى مخزوم فوليتها منهم خالد بن الوليد (ت ٢١ هـ) ، وكان هناك من تخزين مكة عنده سلاحها وهو « عبد الله بن جدعان » فإذا احتاجوا إليه وزعه بينهم^(٤) . ومن الوظائف التي كان لها علاقة بالإدارة العسكرية « القيادة » و « اللواء » ، وكانت لبني أمية حيث تولاهم منهم أبو سفيان بن حرب « ت ٢٢ هـ » ، وبقي يقوم بها حتى جاء الإسلام^(٥) . وكانت راية مكة تسمى « العقاب »^(٦) . ويبدو أن التنظيم العسكري كان يقتضي أن يتولى سادات مكة قيادة أحيائهم ، فيقود كل سيد شعب أبناء قومه ، ويوجههم حيث يرى في المعركة^(٧) ، أما التنسيق بين خطط المقاتلين لإنجاح المعركة فيكون أمره إلى من يتولى قيادة قريش^(٨) ، فيتولى إدارة المعركة ، وتوجيه قيادات القبائل ، لتنفيذ الخطة العامة .

أما « الإدارة الدبلوماسية » لمكة ، فتشمل بعض الوظائف البسيطة التي تنظم علاقاتها

-
- (١) المقدسي ، البدء والتاريخ (ج ٤ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥) . والجوهري إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣ هـ) ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تحقيق أحمد عبد الغفور (عطار / ط) بيروت ، دار العلم للملايين سنة (١٩٧٩ م) (ج ٢ ، ص ٨٧٨) . وابن الأثير ، الكامل (ج ١ ، ص ٣٥٩ - ٣٦١) . والنويري ، نهاية الأرب (ج ١٥ ، ص ٤٢٧) . ومحمد أحمد جاد المولى ، أيام العرب في الجاهلية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي . د . ت (ص ٣٣١) .
- (٢) النويري ، نهاية الأرب (ج ١٥ ، ص ٤٢٩) . والعصامي عبد الملك بن حسين بن عبد الملك (ت ١١١١ هـ) ، نبط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، قطر ، المطبعة السلفية . د . ت (ج ١ ، ص ١٩٦) .
- (٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد (ج ٢ ، ص ٢٢٦) . وابن الأثير ، أسد الغابة (ج ٢ ، ص ٩٣) . جاد المولى ، أيام العرب (ص ٣٢٩) .
- (٤) ابن حبيب ، المحجّر (ص ١٦٤ ، ١٦٥) والأزرقي ، أخبار (ج ١ ، ص ٧١) . وابن عبد ربه ، العقد الفريد (ج ٣ ، ص ٢٣٦) . وابن خلدون ، تاريخ (ج ١ ، ص ١٦) . والألوسي ، بلوغ الأرب (ج ١ ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩) .
- (٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد (ج ٣ ، ص ٤٣٦) . وابن الأثير ، الكامل (ج ١ ، ص ٥٨٨ - ٥٩٠) .
- (٦) الأزرقي ، أخبار (ج ١ ، ص ٦٣ - ٦٦) . (٨) جواد علي ، المفصل (ج ٥ ، ص ٢٥٠) .

الخارجية ، « فالسُّفارة » عرفت كوظيفة إدارية « لبني عدي » فكان أهل مكة إذا أرادوا أن يبعثوا سفيرًا بعثوا عمر بن الخطاب (ت ٢٣) ^(١) وقبلوا سفارته في حالة السلم أو الحرب ، وكانت هذه المهمة تحتاج إلى فطنة خاصة ، ومعرفة بالقبائل وأوضاعها وأنسابها فكانوا « يبعثونه منافراً أو مفاخرًا ورضوا به » ^(٢) .

وهناك إشارات تفيد أن « البريد » عُرف في مكة قبل الإسلام ، وقد ظهر ذلك في شعر ينسب إلى « ورقة بن نوفل » قاله عندما قُتل عثمان بن الحويرث في بيت « ابن جفنة الغساني » فاتهم به ، وكان يعرف بـ « راكب البريد » ^(٣) فقال ورقة :
وركب البريد مخاطراً عن نفسه ميت المظنة للبريد المقصد ^(٤)

لقد أتقن المكيون بناء العلاقات وعقد المعاهدات مع جميع الأطراف ، ولعل في الإيلاف مصداقاً لذلك . واستطاعت مكة أن تلعب لعبة التوازن بإتقان بين الشرق والغرب في ذلك الحين ، وحافظوا على سياسة الحياد في تعاملهم مع الروم والفرس ، فكان لديهم المرونة والقدرة على التحرك واستثمار العلاقة العدائية بين الفرس والروم ^(٥) .

لقد حاول الروم غير مرة احتواء مكة ، ولكنهم باؤوا بالفشل ^(٦) . واستطاع المكيون أن يحافظوا على معاهدتهم الخارجية المتمثلة بالإيلاف « وأن يحافظوا على تقاليد الحكم في المجتمع المكي المتمثلة بقيادة الملأ » .

ومن الإدارات التي يشار إليها في مكة « الإدارة القضائية » حيث كان هناك قضاة يحكمون بين الناس ، فكان عامر بن الظرب يجلس في الأسواق والمواسم فيأتيه الناس من شتى القبائل فيحكم بينهم ^(٧) . ويلاحظ أن القضاة بعد عامر كانوا من بني تميم ^(٨) ، وقد افتخر الشعراء التميميون في قصائدهم بالواجبات التي قامت بها تميم ومنها القضاء بين الناس ، فيقول الفرزدق (ت ١١٤ هـ) :

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد (ج ٣ ، ص ٢٣٦) . وابن الجوزي عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ) ، تاريخ عمر بن الخطاب ، تحقيق أسامة عبد الكريم الرفادي . د . ت (ص ٢٢) . أبو الفضل ، مكة (ص ٦٠) .

(٢) ابن الجوزي ، تاريخ عمر (ص ٢٢) . (٣) مصعب الزبيري ، نسب قريش (ص ٢١٠) .

(٤) م . ن (ص ٢٦١) .

(٥) إبراهيم يعضون ، الإيلاف القرشي ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، عدد (٤٣ ، ١٩٨٢) (حلقة رقم ٢) (ص ٢٩) .

(٦) كما حدث مع عثمان بن الحويرث الذي قتلته مكة نتيجة لذلك ، انظر : الأزرق ، أخبار (ج ، ص ١٤٣ ، ١٤٤) .

والزبير بن بكار ، جمهرة (ص ٢٠٩ ، ٢١٠) . والفاسي ، شفاء الغرام (ج ٢ ، ص ١٠٨) . ويعضون ، الإيلاف القرشي

(ص ٣٠) . (٧) ابن حبيب ، المحبر (ص ١٨١ ، ١٨٢) .

(٨) م . ن (ص ١٨٢) . وابن حزم ، جمهرة (ص ٢٠٨) .

وعمي الذي اختارت معد حكومة
هو الأقرع الخير الذي كان يَبْتَنِي
على الناس إذ وافوا عكاظ بها معا
أواخي مجدي ثابت أن ينزعا (١)

ويشير ابن حبيب (ت ٢٤٥هـ) إلى أسماء قضاة تميم، ويذكر أن آخرهم كان سفيان بن مجاشع، هو آخر من اجتمع له الموسم والقضاء في عكاظ حتى جاء الإسلام (٢).

وهناك وظيفة أخرى لها علاقة بالقضاء وهي الأشناق (٣) وكانت لأبي بكر (ت ١٣هـ)، وهي من بني ابن تيم، فكان إذا احتمل منها شيئاً أعطته قريش بدل ما تحمل من المغارم (٤). ويظهر أن هذه الوظيفة كانت ثابتة لأبي بكر. فإن قام بها غيره لم يعط شيئاً منها (٥). وهذا يدل على أن تقدير الأشناق لصاحبه فقط وإن كان يقوم به غيره أحياناً.

وهكذا استطاعت مكة أن تصل إلى درجة من التنظيم الإداري كان في جوهره تنظيمًا قبليًا (٦)، تطور بحسب مقتضيات المصالح المكية، وبقيت مكة تحافظ على هذا التنظيم بوظائفه المختلفة حتى قام الإسلام، فألغاه النبي ﷺ باستثناء السدانة والسقاية والرفادة؛ إذ هي خدمات عامة ضرورية، إلا أن أهميتها قد خفت، لاسيما أن هذه الوظائف مرتبطة بشكل كبير بموسم الحج، وهو موسم وفتي محدود.

(١) الفرزدق، همام بن غالب صعصة (ت ١١٤هـ) شرح ديوان الفرزدق، شرح إيليا الحاوي، (ط ١) بيروت، دار الكتاب اللبناني، سنة (١٩٨٣م) (ج ٢، ص ٤٣٠).

(٢) ابن حبيب، المحيّر (١٨٢). وكستر، الحيرة ومكة (ص ٧٨).

(٣) أي تحمل الديات والمغارم. انظر: الزبيدي، التاج (ج ٦، ص ٤٠٠، ٤٠١).

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد (ج ٣، ص ٢٣٦). والزبيدي، التاج (ج ٦، ص ٤٠٠، ٤٠١). والألوسي، بلوغ الأرب (ج ١، ص ٢٤٩). وأبو الفضل، مكة (ص ٦٠).

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد (ج ٣، ص ٢٣٦).

(٦) انظر: تفاصيل ذلك في: الشريف، دور الحجاز (ص ١٦).

رابعاً : الإدارة في يثرب (١)

تختلف الروايات التي تصور لنا أول من سكن يثرب ، إذ تذكر بعض الروايات أن أول من سكن يثرب هم العماليق ثم تغلب عليهم اليهود (٢) ، وبعد سيل العرم (٣) في اليمن قدم العرب « الأوس والخزرج » ونزلوا يثرب إلى جانب اليهود (٤) .

إن المعلومات عن إدارة يثرب قليلة ومضطربة ، وهي عبارة عن إشارات قليلة بعكس المعلومات عن إدارة مكة ، ومن هنا ، فإننا لا نعرف عن يثرب إلا النزر القليل . ولعلنا من خلاله نعطي صورة أولية عن إدارة يثرب قبل الإسلام .

« إدارة يثرب المدنية » كانت بيد اليهود ابتداءً ؛ إذ كان اليهود قد نزلوا في شعاب المدينة فأقاموا فيها المزارع والبساتين (٥) ، وكان اليهود يخضعون في حكمهم للأحبار

(١) يثرب : « سميت بذلك ؛ لأن أول من سكنها بعد التفرق يثرب بن فانية بن مهلهل بن أزم ، وقد ذكر لها السهمودي أسماء كثيرة : أشهرها طيبة والباقية والمباركة وغيرها » . انظر : ابن الفقيه ، مختصر (ص ٢٣) . والبكري عبد الله بن عمر بن عبد العزيز (٤٨٧) . معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، سنة (١٩٤٥م) (ج٢ ، ص ١٣٨٩) . ياقوت ، معجم (ج٥ ، ص ٤٣٠) . والسهمودي جمال الدين أبو المحاسن عبد الله بن السيد الشريف (ت ١٠١١هـ) وقاء الوفا في أخبار دار المصطفى ، مطبعة الآداب والمؤيد ، مصر سنة (١٣٢٦هـ) (ج١ ، ص ٧ - ١٩) .

(٢) الأصفهاني ، الأغاني (ج١٩ ، ص ٩٤) . والسهيبي ، الروض (ج٤ ، ص ٢٩٠) . وابن خلدون ، تاريخ (ج٢ ، ص ٢٨٦) . وجواد علي ، المفصل (ج٤ ، ص ١٣٣) .

(٣) ذكرت قصة سيل العرم في القرآن ، انظر : سورة الزخرف : آية (١٥ ، ١٦) . سيل العرم : ماء أحمر أرسله الله في السد فغار الماء . وقيل : العرم : اسم الوادي ، وقيل : المطر الشديد الذي أرسله الله عليهم . انظر : الزمخشري ، الكشاف (ج٣ ، ص ٣٨٥) . والقرطبي ، الجامع (ج٤ ، ص ٢٨٥) . وأبا حيان أثير الدين أبا عبد الله بن يوسف (ت ٧٥٤هـ) البحر المحيط (ط١) مطبعة السعادة ، مصر سنة (١٣٢٨هـ) (ج٨ ، ص ٢٦٩) . والسيوطي ، الدر المنثور (ج٦ ، ص ٦٩١) .

(٤) ابن رسته أبو علي أحمد بن عمران (توفي نحو ٣٠٠هـ) الأعلاق النفيسة ليدن ، نسخة مصورة عن بغداد ، مكتبة المثنى سنة (١٨٩١م) (ص ٦٣٠) . وابن الأثير ، الكامل (ج١ ، ص ٦٥٥) . وابن خلدون ، تاريخ (ج٢ ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩) . والسهمودي ، وفاء (ج١ ، ص ١٢٥) .

(٥) ابن رسته ، الأعلاق (ص ٦٣) . وابن الأثير ، الكامل (ج١ ، ص ٦٥٥ ، ٦٥٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨١) . وابن خلدون ، تاريخ (ج٢ ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩) . والسهمودي ، وفاء (ج١ ، ص ١٢٥ ، ١٢٦) . وسيدوي ، تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتير ، دار إحياء الكتب العربية (١٣٦٧هـ ، ١٩٤٨م) (ص ٥١) .

الذين يرجع إليهم اليهود في كل قضاياهم السياسية والإدارية والقضائية (١) . وقد أشارت الآية القرآنية إلى ذلك فقال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] (٢) . ويبدو أن هؤلاء الأحرار كانوا يرهقون الناس بأخذهم الأموال مقابل المعاملات التي يقومون بها من زواج وطلاق وقضاء وغيرها ، فقال الله تعالى ينعي عليهم ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ [التوبة: ٣٤] (٣) .

ولعلنا لا نبتعد عن الحقيقة إن قلنا : إن الإدارة عند اليهود كانت إدارة دينية بحتة يقوم بها الأحرار ورجال الدين اليهودي .

أما الإدارة المدنية عند العرب الذين نزلوا بجانب اليهود ، فكانت قد نظمت بأن انقسمت يثرب إلى دوائر زراعية (٤) ، كل دائرة تابعة لبطن من البطون ، وكل بطن من البطون الكبيرة يضم طائفة من البطون الصغيرة ، يشرف عليها شيخ كل بطن من البطون ، كما أشار إلى ذلك السمهودي (ت ١٠١١ هـ) في كتابه (٥) .

ومع الوقت أصبح هناك شبه توازن في نظام الحكم بين بطون يثرب الكبيرة ، فكانت كل البطون تتور إذا أراد بطن كبير أن يستأثر بالنفوذ (٦) ، إذ إن إقامة نوع من الحكم يهيمن على الشؤون العامة لم يكن ممكناً ، فلم تذكر الروايات أن أهل يثرب قد خضعوا لرئيس واحد ، ويبدو أن الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج كانت نتيجة لهذا التنافس القبلي على الرياسة ، واحتلال مركز الصدارة في يثرب (٧) . ولعل اليهود كان لهم الدور الأكبر في إثارة هذه النزاعات .

(١) ابن هشام ، السيرة (١م) ، ص ٥٥٠ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ (ابن إسحاق) . ولفنستون إسرائيل ، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية و صدر الإسلام ، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة (١٩٢٧ م) (ص ٢١ ، ٢٢) .
(٢) انظر : الزمخشري ، الكشاف (ج ٢ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦) . والسيوطي ، الدر المنثور (ج ٤ ، ص ١٧٤) .
(٣) انظر : ابن كثير ، مختصر تفسير ابن كثير ، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني (ط ٧) بيروت ، دار القرآن الكريم (١٤٠٢ هـ ، ١٩٨١ م) (ج ٢ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩) .

(٤) السمهودي ، وفاء (ج ١ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥) . الشريف ، دور الحجاز (ص ٥٠) .
(٥) السمهودي (ج ١ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥) . وعن بطون الأوس والخزرج وتقسيماتها انظر : ابن الأثير ، الكامل (ج ١ ، ص ٦٥٦ - ٦٥٨) . والسمهودي (ج ١ ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩) .

(٦) السمهودي ، وفاء (ج ١ ، ص ١٥٢ - ١٥٦) . ولفنستون ، تاريخ (ص ١١٨) .
(٧) عن الحروب بين الأوس والخزرج انظر : ابن رسته ، الأعلام (ص ٦٤) . وابن الأثير ، الكامل (ج ١ ، ص ٦٥٩ ، ٦٦٣ ، ٦٦٥ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢) . والسمهودي ، وفاء (ج ١ ، ص ١٥٢ - ١٥٦) .

ويلاحظ أنه في أواخر عهد يثرب بالجاهلية ، حاول أهلها أن يصلوا إلى صيغة مشتركة من أجل حكمها وإدارتها ، وذلك بأن يحكم يثرب أحد زعماء الأوس عامًا ، وأحد زعماء الخزرج عامًا آخر ؛ أي أن يكون الحكم بالتناوب ^(١) . فاصطلحوا ابتداءً أن يكون عبد الله بن أبي بن سلول (ت ٩هـ) ملكًا عليهم ^(٢) ، ولم نجد في الروايات ما يشير إلى وجود « ملأ » ليثرب ، أو مكان للاجتماع « كدار الندوة » ، ولكن بعض الإشارات تفيد أن وجهاء كل بطن كان لهم مكان يجتمعون فيه يسمى « السقيفة » ^(٣) .

أما « إدارة يثرب المالية » فتمثل في أن اليهود قد استوطنوا هذه المنطقة لخصوبتها ، فأقاموا الحوائط وحفروا الآبار للشرب والسقي ^(٤) ؛ ولذلك فقد عُرفت يثرب وما حولها بكثرة نخلها ، ويلاحظ أن اليهود والعرب قد أداروا هذه الزراعة بنجاح كبير ، فزرعوا النخل على شكل صفوف في بساتين منظمة ، حتى إن البطون والقبائل نزلت ونظمت نفسها في شعاب ، وفي الشعاب بساتين ، وفي البساتين قنوات وآبار ^(٥) .

ساعدت خصوبة التربة مع وجود الماء في يثرب على زراعة أنواع مختلفة من المزروعات ، ولعل أشهرها جميعًا « النخيل » ، وعليه كان يعتمد أهل يثرب في طعامهم وتجارتهم ^(٦) .

(١) ابن هشام ، السيرة (١م ، ص ٥٨٤ ، ٥٨٥) . والبيهقي أبو بكر أحمد بن حسين (ت ٤٥٨هـ) ، دلائل النبوة تعليق عبد المعطي القلمه جي ، (ط ١) دار الكتب العلمية ، بيروت (ج ١ ، ص ٤٤٩ ، ٥٠٠) . ومحمد رأفت عثمان ، رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي ، مطبعة السعادة القاهرة ، د . ت (ص ٩) .

(٢) ابن حبيب ، المحيّر (ص ٢٣٣) . وابن حزم ، جمهرة (ص ٣٥٤ ، ٣٥٥) . وابن الأثير ، الكامل (ج ١ ، ص ٦٨٠ ، ٦٨١) . وابن خلدون (ج ٢ ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٠) . والمقرئزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنبياء والأموال والحفلة والمتاع ، تحقيق محمود محمد شاكر (ط ٢) الشؤون الدينية قطر ، د . ت (ج ١ ، ص ٩٩) .

(٣) ابن هشام ، السيرة (١م ، ص ٥٨٤ ، ٥٨٥) . والبيهقي ، دلائل (ج ١ ، ص ٤٩٩ ، ٥٠٠) . وجواد علي ، المفصل (ج ٤ ، ص ٢٥٣) .

(٤) الطبري ، تاريخ (ج ٢ ، ص ٣٥٧) . (رواية ابن إسحاق) . وابن منظور ، اللسان (ج ٧ ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠) . (٥) م . ن (ج ٢ ، ص ٣٥٧) (ابن إسحاق) . م . ن (ج ٢ ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠) . والزبيدي ، التاج (ج ٥ ، ص ١٢٣) . والسهمودي ، وفاء (ج ١ ، ص ١٣٣ - ١٣٥) .

(٦) البخاري ، الصحيح (ج ٣ ، ص ٧٦ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٢) . والخزاعي علي بن عمر التلمساني (ت ٧٨٩هـ) ، تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد الرسول ﷺ من الحرف والصناعات والعمالات الشرعية ، تحقيق أحمد محمد أي سلامة ، القاهرة (١٩٨٠م) (ص ٧١٢ ، ٧١٣) . والكثاني ، عبد الحي الإدريسي الحسيني الفاسي (لم يعرف تاريخ وفاته) نظام الحكومة النبوية المسمى « التراتيب الإدارية » ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت د . ت (ج ١ ، ص ٤٠٠ - ٤٠٣) .

افتخر أهل يثرب بإتقانهم زراعة النخيل ، حتى إننا نجد كعب بن مالك (ت ٥٠ هـ) افتخر على مكة يوم الخندق (٥ هـ) بأن قومه غرسوا النخيل حدائق تُسقى بالنضح من آبار حُفرت على زمن عاد ، وأن لهم الزرع الذي يتباهى بسنبله الجميل ^(١) . وكانت إدارة هذه المزارع والآبار عن طريق أصحابها فيحفرون الآبار ^(٢) . ليستفيدوا من مياهها ، وقد يكرونها لغيرهم مقابل أجره معينة ^(٣) .

وكان لليهود دور كبير في زراعة يثرب ، فأدخلوا أنواعًا من الأشجار ، وطرقًا جديدة للحراثة والزراعة ^(٤) .

أما الصناعة فقد اشتهر بها اليهود ، فكان يهود بني قينقاع يشتهرون بصناعة « الصياغة » ^(٥) ، وكان هناك كثير من الصناعات المعتمدة على الزراعة ^(٦) ، وكذلك أعمال الحدادة والتجارة والخواصة كانت نشيطة في المدينة ^(٧) .

وكانت صناعة الأسلحة قد احترف بها اليهود والعرب ^(٨) . وكذلك صناعة النسيج التي تقوم بها النساء ^(٩) ، كما كانت الخياطة واللباغة من الصناعات التي يديرها الناس بإتقان ^(١٠) . أضف إلى ذلك وجود البنائين الذين يبنون المنازل ويصنعون الطوب ، وصناع يصنعون آنية المنازل وأدواتها مما يستعمل الناس في حياتهم اليومية ^(١١) .

(١) ابن هشام ، السيرة (٢م ، ص ٢٦٣ - ٢٦٦) . هذه الآبار مثل الغاب واليزدي ، انظر : شعر كعب بن مالك يصف ذلك في قصيدته بعد الخندق . ابن هشام ، السيرة (٢م ، ص ٢٦٣ - ٢٦٦) .

(٢) من هذه الآبار (غرس) وهي من أجودها ، قال النبي ﷺ : « نعم البئر غرس » وهناك بئر (أبي أنس) و (بضاعة) و (البقع) ، كان أهل يثرب يشربون منها ويسقون نخلهم . انظر : ابن سعد ، الطبقات (ج ١ ، ص ٥٠٣) و الزبيدي ، تاج العروس (ج ٤ ، ص ٢٠١) (غرس) (ج ٥ ، ص ٢٧٨) (بضع) . وجواد علي ، المفصل (ج ٧ ، ص ٢١٣ ، ٢١٤) .

(٣) جواد علي ، المفصل (ج ٧ ، ص ٢١٤) . (٤) ولفنستون ، تاريخ اليهود (ص ١٧) .

(٥) البخاري ، الصحيح (ج ٣ ، ص ٧٨ ، ٧٩) . قال : « جاءت فاطمة إلى رجل صواغًا من بني إسرائيل يأذخر لتبنيه وتستعين به على وليمة عرسها » . وانظر : الواقدي ، المغازي (ص ١٧٨ ، ١٧٩) . ولفنستون ، تاريخ اليهود (ص ١٩) .

(٦) البخاري ، الصحيح (ج ٣ ، ص ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١) .

(٧) م . ن (ج ٣ ، ص ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٧) . وابن الأثير ، أسد الغابة (ج ١ ، ص ٤٣) . والمقريزي ، إمتاع الأسماع (ج ١ ، ص ٢٤٥) . والخزاعي ، الدلالات (ص ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٨) . وابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (ت ٤٦٣ هـ) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق علي محمد الجاوي ، مكتبة النهضة ، مصر . د . ت (ج ١ ، ص ٥٥) .

(٨) الخزاعي ، الدلالات (ص ٧٢٨ ، ٧٣٨ ، ٧٥٠) . والسهمودي ، وفاء (ص ١٩٨ ، ١٩٩) .

(٩) البخاري ، الصحيح (ج ٣ ، ص ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٧) .

(١٠) م . ن (ج ٣ ، ص ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٧) .

(١١) الشريف ، دور الحجاز (ص ٦٣) .

لم يشتهر أهل يثرب بالتجارة كأهل مكة ، ومع ذلك فقد خرجوا في قوافل تجارية إلى الشام والهند (١) . وكان اليهود قد استولوا على السوق التجارية في يثرب ، فكانوا يجلبون إلى سوقها من البضائع ما يحتاج إليه أهلها (٢) ، كما كانت « الساقطة » تنزل يثرب ومعها البُر والشعير والزيت والتين والقماش (٣) ، كما اشتغل اليهود أيضًا بالصيرفة والربا (٤) ، وكان الأعراب يحفظون عندهم ودائعهم ، وأشارت آيات القرآن الكريم إلى ذلك (٥) ، فكان العرب يقترضون من اليهود المال والطعام مقابل ربًا فاحشًا يفرضونه عليهم (٦) ، ويلاحظ أن أهل يثرب قد تعاملوا مع أهل البادية (٧) . وكذلك كان لهم تعامل مع القوافل المكية التي تمر بهم (٨) . ومع أن أسواق يثرب كانت بيد اليهود وكانوا يسيطرون بشكل كبير على الحياة الاقتصادية فيها ، إلا أن هذا لم يمنع أهل يثرب من أن يرحلوا إلى الأسواق العربية في عكاظ ومجنة وذبي الجماز (٩) . وأن يستوردوا ما يحتاجون إليه من الزيت والتببذ والعطور والمسك وغيره (١٠) .

أما « الإدارية العسكرية » فهي تتمثل في أن يثرب على شاكله مكة ، فهي بغير سور ولا حائط يحيط بها ، وتعويضًا عن ذلك ، فقد ابنتى اليهود والعرب الحصون والآطام من الحجارة القوية (١١) . فكان اليهود يخزنون فيها أموالهم وثمارهم وكل غال عندهم ،

(١) البخاري ، الصحيح (ج٣ ، ص ٧١ ، ٧٢) . « قال : عن زيد بن ثابت قال : خرجنا تاجرين على عهد رسول الله ﷺ فسألنا رسول الله عن الصرف ، فقال : إن كان يبدأ بيد فلا بأس » . وانظر : البلاذري ، فتوح (ص ٢٠) . وجواد علي ، المفصل (ج٧ ، ص ٣١٣ ، ٣١٤) .

(٢) الراقي ، محمد عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ) ، كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونس ، عالم الكتب ، بيروت . د . ت (ص ١٦) .

(٣) الساقطة : الذين يتسقطون الأخبار ، ولم يعرف هل هم من الروم أم اليهود أم العرب . انظر : جواد علي ، المفصل (ج٤ ، ص ١٤١) .

(٤) البخاري ، الصحيح (ج٣ ، ص ٧٧ ، ٧٨) . والطبري ، تفسير (ج٩ ، ص ٢٩١ ، ٢٩٢) .

(٥) الطبري ، تفسير (ج٦ ، ص ٥١٩ - ٥٢١) . انظر : سورة آل عمران [آية : ٧٥] .

(٦) البخاري ، الصحيح (ج٣ ، ص ٧٧ ، ٧٨) . والطبري ، تفسير (ج٩ ، ص ٢٩١ ، ٢٩٢) . وابن كثير ، مختصر (ج١ ، ص ٤٦٤) .

(٧) البخاري ، الصحيح (ج٣ ، ص ٨١ - ٨٣) . والسمهودي ، وفاء (ج١ ، ص ٥٤٠ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥) .

(٨) ابن هشام ، السيرة (م ١ ، ص ٤٥٠) . (٩) البخاري ، صحيح البخاري (ج٣ ، ص ٨١ ، ٨٢) .

(١٠) الخزاعي ، تخريج (ص ٦٤٣) .

(١١) الطبري ، تاريخ (ج٢ ، ص ٥٧٥) (ابن إسحاق) . وابن منظور ، اللسان (ج١٢ ، ص ١٩) . والرؤيدي ،

التاج (ج٨ ، ص ١٨٧) . والسمهودي (ج١ ، ص ١٤٤ - ١٥٥) . ولفنستون ، تاريخ اليهود (ص ١٦) .

فيدخلون إليها في الليل ولا يخرجون منها إلا صباحاً (١) . وتشير كتب السير إلى مجموعة من حصون اليهود ، وأشهرها حصن كعب بن الأشرف (قتل سنة ٥٣ هـ) ، وحصون بني قريظة وغيرها (٢) .

وكان للعرب مجموعة من الحصون ، ويلاحظ أن الحرب بين الأوس والخزرج جعلتهم يحافظون على هذه الحصون ويحصنونها ، فكانوا يتحاربون على تلك الحصون والآطام حتى صاروا يؤرخون « عام الآطام » (٣) ، واشتهر أيضاً أطم « الصناجي » وغيره ، وقد أشارت كتب السيرة إلى مجموعة من هذه الحصون (٤) .

لقد كان اليرثيون أهل قوة وجلد وصبر على الحروب ، ولاسيما وأن الحروب التي وقعت بينهم قد أكسبتهم مهارة عسكرية فائقة ، جعلتهم يقولون للنبي في بدر : « وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، إنا لضير في الحرب ، صدق عند اللقاء » (٥) .

لقد كانت يثرب تملك من القوة الحربية ما تستطيع به فعلاً أن تحمي نفسها (٦) . وكان لديهم من الأسلحة ما يستطيعون به الوقوف أمام القبائل الطامعة في خيرات يثرب (٧) . أضف إلى ذلك ؛ أن يثرب كانت موطناً من مواطن صناعة الأسلحة ، وبخاصة صناعة الدروع ، وقد اشتهر بصناعتها اليهود (٨) ، وكذلك صناعة السهام وهي تُعدُّ من أجود السهام (٩) .

وتشير الروايات إلى أن زعماء البطون هم الذين كانوا يقومون على تعبئة الناس وقيادتهم في الحروب ، كما يظهر من دراسة الحروب التي خاضوها قبل الإسلام ،

(١) الواقدي ، المغازي (ص ١٨٤) .

(٢) م . ن . (ص ١٨٤) . وابن هشام ، السيرة (٢م ، ص ٥١ ، ٥٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧) . وابن سعد ، الطبقات (٢ج ٣١ - ٣٤) . ولفنستون ، تاريخ اليهود (ص ١٦) .

(٣) المسعودي علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) التنبيه والإشراف ، تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي ، القاهرة ، دار الصاوي (١٩٣٨) (ص ١٧٦ ، ١٧٧) . (٤) الرُّبَيْدي ، التاج (ج ١٠ ، ص ٢١٧) .

(٥) ابن هشام ، السيرة (١م ، ص ٦١٥) . وابن سعد (ج ١ ، ص ٢١٧ ، ٢١٨) (قالوا) الحلبي ، السيرة الحلبية (ج ٢ ، ص ١٩٩) .

(٦) المقرئزي ، إمتاع (ج ١ ، ص ٣٦٤) .

(٧) م . ن . (ج ١ ، ص ٣٦٤) . والشريف ، دور الحجاز (ص ٥٩) .

(٨) الخزاعي ، تخريج الدلالات (ص ٧٢٨) . والسهمودي ، وفاء (ص ١٩٨ ، ١٩٩) . والشريف ، دور الحجاز (ص ٥٩) .

(٩) الخزاعي ، تخريج (ص ٧٢٨) . وانظر : الواقدي ، المغازي (ص ١٨٤) .

وكانت آخرها حرب « بُعثات » ثم جاء الإسلام (١) .

وهكذا ؛ فإن يثرب قد حرمت من وجود غاية واحدة يجتمع عليها أهلها بالمقارنة مع مكة ، ولم يكن لها من التنظيم الإداري كما كان لمكة ، وكان المجتمع اليثربي مجتمعاً قبلياً ، كل قبيلة لها نظامها وقيادتها التي تقوم بإدارتها على أساس قبلي بحت ، وبذلك ظلت الحياة القبلية تفرض نفسها في يثرب ، ويمكن القول : إننا لم نلمح فرقاً كبيراً بينها وبين حياة القبائل في أنحاء الجزيرة إلا بالاستقرار الذي فرضته الحياة الزراعية على أهلها .

* * *

(١) ابن رسته (ص ٦٤) . وابن الأثير (ج ١ ، ص ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٥ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨١) . والسهمودي ، وفاء (ج ١ ، ص ١٥٢ - ١٥٦) .